التقديم :

https://nidaulhind.blogspot.com

مدونة علمية دعوية فكرية

(راجيا دعائكم)



الهند فى فترة ما قبل التاريخ

تكوين طقات الأرض

يجب أن ينظر إلى الهند فى فترة ما قبل التاريخ من الناحيتين. الطبيعية والانسانية. فشكل الهند الجغرافى كما نشاهده اليوم على الخريطة الجغرافية لم يتم تكوينه فى يوم واحد، بل إنه جاء نتيجة لحقبة طويلة من التطور الجيولوجى أو التكوين الأرضى. كانت الأرض مثل الشمس، كومة متحركة محترقة، لم تبدو عليها أى بلد من البلدان كالهند مثلا، كما أنها لم تكن تضم على أية حياة أو أشكال مجسمة وقد اصطلح علماء طبقات الأرض على تقسيم أدوار تكوين الأرض إلى أربعة عصور، كل منها قسم بدوره إلى عصور متفرعة بخصوص الحياة.

والعصور هى:

١ - أزوئى (Azoic) العصر الذى لم تكن فيه الحياة على الأرض؛

٢ - پالوزوئى (Paleozoic) العصر الذى شاهد ظهور أنواع من الحياة أولا فى شكل حيوانات عديمة الفقرات كحامول البحر، ثم بعد ذلك كالسمك والأفاعى والطيور، وظهور أشجار وغابات هائلة التى أصبحت معادن الفحم فى الأرض،

٣ - ميسوزوئى (Mesozoic). العصر الذى شاهد بعث الحياة فى أطوارها المتوسطة؛

٤ - كينوزوئى (Cainozoic). العصر الذى شاهد الحياة فى أطوارها الحديثة والذى تطورت فيه الحيوانات اللبنيه التى انبعث منها الانسان.

والثابت أن الحياة بدأت تظهر على الأرض عندما أخذت الأخيرة تبرد وتتجمد وتتصلب. وقد تسنى للارض أن تبلغ شكلها الحالي بفضل الزلازل وثوران البراكين، وتقلبات الجو والطقس. وبهذه الصورة أخذت الهند شكلها. فقد تم بناؤها تدريجيا. وبعض أجزائها قديم العهد — الأجزاء التي تجمدت في بداية الأمر. فلها أساس صخرية قديمة كقدامة الوجود. والسلسلة الصخرية تمتد عبرها من الشمال إلى الجنوب. وجزء الهند الذي على شبه الجزيرة، والدكن وجنوبي الهند هي من أجزائها القديمة. وإن السهول التي تؤلف شمالي الهند هي حديثة العهد بالمقارنة، والجزء الذي على شبه الجزيرة كان في البداية جزءا من قارة أخرى يسميها علماء طبقات الأرض بـ «گوندوانا» (Gondwana) وكانت تمتد هذه القارة من أفريقيا الجنوبية، مارة عبر استراليا، حتى تبلغ أمريكا الجنوبية. ويستدل على ذلك من مماثلة البقايا المستخرجة من حفريات الأرض في جميع هذه المنطقة. وكانت سلسلة الجبال الغربية (Western Ghats)، بمثابة سور بين الجزئين: الشرقي والغربي لقارة گوندوانا. ولهذا نجد أن مياه الأنهر في شبه الجزيرة الهندية تجري من منابع لها قريبة من بحر العرب في اتجاه معاكس حتى تصب في خليج بنغال. وفي الشمال كان بحر المحيط الأوربي - الاسيوي المعروف بمحيط تاتيس (Tethys). قد اكتنف هذه المنطقة بأسرها بادءاً من أوربا الوسطى على طول آسيا الصغرى إلى الهند الشمالية وبرما. أما في الهند فكان «أراوليس» (Aravalis) الوحيد الذي أطل على هذا الأوقيانوس. والمشابهة التي توجد في البقايا الأثرية من حفريات الأرض في أماكن منفصلة متباعدة كالصين، وأواسط هملايا، وبرما، تشير إلى عدم وجود أي حاجز في التنقلات في الأوقيانوس.

وبعد فترة طويلة من الزمن وقعت الهزات الأرضية الابتدائية لرسم الجبال وتشكيلها. فتقهقر وتراجع أوقيانوس تاتيس باتجاه غربي، وأخذت أرضه ترتفع، والأراضي على جانبي الأوقيانوس أخذت تتقرب بعضها إلى بعض.

أما الوديعات الناعمة فى البحر التى حالت دونها، انطوت وتحطمت وتقلبت فى صورة جبال الهند «هماليا»، وجبال فارس، وجبال كارپثيا (Carpathia)، وجبال آلپ (Alps). وكانت الحركة الرئيسية إرتجاع آسيا إلى الجنوب واندفاع رواسب البحر ضد كتلة الهند الراسخة، أى النواحى الشمالية فى شبه الجزيرة الهندية التى تحملت شدة صدمة الهزة، وتكسرت شيئا ما، وتشاركت فى الانكماش والانطواء. ويرى علماء طبقات الأرض آثار هذا الانكماش والانطواء فى أواسط جبال هماليا حتى فى أعالى قممها وفى منخفضاتها حول شملا (Simla). وذلك على نفس النحو الذى يشاهد فى الرواسب البحرية المطوية فى الجزء الشمالى من قطاع دهره دون ـ شملا ـ اسپيتى (Dehradun-Simla-Spti)

وقد نشأت فى نفس الوقت، الأراضى الواقعة بين جبال هماليا والمرتفعات الدكنية فسطحات الأراضى فى النواحى الشمالية من الهند نشأت وتكونت بعد فترة طويلة من العصور، وذلك من تعبئة الانخفاض أو البحر تدريجيا بالمواد التى جرفت من أعالى التلال الشمالية فكان هنالك فترة طويلة بعد أن أحدث الهند شكلها الجغرافى الحاضر إلى أن ظهر آدم فى الهند ليرتب تاريخها. فبدأ التاريخ البشرى بمدة طويلة بعد أن اكتمل تاريخ البلاد الطبيعى وتمهدت الظروف الداعية لظهور آدم

الثقافة فى ما قبل التاريخ

العصور الحجرية

إن المواد المختلفة التى كان يستخدمها الانسان لسد حاجاته الأولية تدل على المراحل المختلفة التى اجتازها فى تاريخه البدائى. وتوجد هذه المواد فى الأغلب فى المعدات، والأسلحة، والأخزاف، والقبور. وكان هذا المواد فى المراحل الأولى يصنع من الحجر وبحت بصورة خشنة. وقد عثر عليه فى الغالب إلى

جانب بقايا الحيوانات المقرصة. وعلى هذا الأساس فان أقدم عصور الثقافة يعرف بالعصر الحجرى القديم.

ويليه العصرى الحجرى الجديد الذى يتميز بالتحسن الذى طرأ على صناعة الأدوات الحجرية التى قطعت ونحتت ثم صقلت على وجه أنيق، ولها صلة مع بقايا الحيوانات غير منقرضة ويتميز هذا العصر باستعمال الفخار التى كانت تصنع بادى ذى بدء بالأيدى، ثم بعد حين على الدواليب. وكما يتميز أيضا بتكريم الموتى بدفن جثثهم فى قبور صنعت من حجارة ذات أحجام ضخمة. ويتضح من كل هذا أن هوة سحيقة من الزمن قد حالت بين العصرين الحجريين. أما الأدوار التالية فى الارتقاء فتكونت بسرعة وبدون شعور بها — العصور التى امتازت باستعمال النحاس، ومركباته (البرونز)، والحديد.

وقد اجتازت الهند كأى بلاد أخرى فى جميع مراحل التطور المشار إليها. ولكن يبدو أنها فاتتها العصر البرونزى (إلا فى أماكن قليلة) واستعاضت عنه بعصر كالعصر النحاسى

والواقع أن بقايا العصر الحجرى القديم فى الهند نادرة. ولم يعثر عليها إلا فى المنطقة الدكنية والهند الجنوبية على اعتبار أن هاتين المنطقتين من أقدم مناطق الهند من ناحية تكوين الأرض. وقد عثر على هذه الأشياء فى بطن طبقات من الطوب والعظام الواقعة ٥٢° جنوبى خط العرض الشمالى، وهى مصنوعة بمادة من الصوان. ولذلك سمى الانسان الذى عاش فى العصر الحجرى القديم بالانسان الصوانى. وقد عثر على عدة أدوات صوانية قريب مدينة مدراس واونكول فى فى مقاطعة گنتور، وأخرى فى كداپا التى كانت بفضل صخورها الصوانية مركز ثقافة العصر الحجرى القديم، كما كانت بلارى موطن الثقافة الحجرى الحديد.

لقد عثر على بقايا العصر الحجرى القديم منعزلة فى عدة من الأماكن

الأخرى. كما عثر على أداة جميلة الصنعة بيضاوية الشكل نحتت من الصو
وادى «رمادا» فى ما بعد الطبقة الثالثة الرمادية التى تضم بقايا جاموس النهر
من الحيوانات المنقرضة وعثر أيضاً على رماد العقيق اليمانى فى مكان مماثل
وادى «گوداورى». وكذلك اسفرت أودية «كون» الصيقة فى منطقة مر
عن أدوات يعتقد أنها تنتمى إلى العصر الحجرى الحديد بسبب محل وجو
وعثر على شوكة سمكة مسننة صنعت على شاكلة رأس السهم فى حفر
راسب نهر گنگا فى مقاطعة غازى پور، تحت طبقة تضم أدوات مصقولة
العصر الحجرى الحديد.

إن رجال العصر الحجرى القديم ألزموا أنفسهم بالمناطق الصوانية كسوا
گوداپا ومدراس، بينما رجال العصرى الحجرى الحديد انتشروا فى جميع أ
الهند. وقد رتبت مخلفاتهم بالاتساع كما يلى.

١ ـ «صوان قصارى» أو أدوات حجرية صغيرة الأحجام، تتراوح طو
بين نصف بوصة وبوصة ونصف وقد صنعت على شاكلة رأس رمح،
هلال، أو على أشكال معقدة. والظاهر أنها عنيت لتوافق تركيب قبضة
خشب عليها لمختلف استعمالها وقد عثر على كمية منها فى تلال «وندیا» و
ناگلكند، وريوا، ومرزاپور على العموم، وفى بطون الكهوف أو الملاجئ
الصخرية مع الرماد أو فحم المدفأة أو فى أكوام القبور، إلى جانب هياكل
كاملة أو أوان فخارية خشنة. وعثر على فأس مستغرب من البرونز صنع
على شاكلة أزميل، مرتفع الأكتاف فى چوتا ناگپور، وآسام، وبكثرة فى
برما، والهند الصينية، وشبه جزيرة ملايا.

٢ ـ مصانع الأدوات: قد عثر على مراكز متعددة تضم مستعمرات العصر الحجرى
الحديد ومصانع الأدوات فى جنوب الهند. وهذه الأدوات قد تم صقلها



رسوم من تراب معدنى أحمر أو من أحجار الدم. تمثل
الأيل، والتمساح والصيادين — (من مجموعة بى سى راى)

على ما يبدو من صخر بلورى وعليها محاذ يتراوح طولها من عشرة بوصه إلى أربعة عشر، وعمقها حوالى بوصتين. وعثر أيضا بكثرة فى هذه المستعمرات على نوع ممتاز من الأوانى الفخارية المصنوعة بواسطة الدواليب، وأيضا مساحق صنعت من الحجر وقطع من أحجار الدم لصنع الألوان.

٣ـ مقاطف الكومات الرمادية الموجودة فى مقاطعة بيلارى من أعمال جنوبى الهند. والمفترض أن هذه هى نتيجة دبح الحيوانات وحرقها بأكملها. وقد اسفرت عن أدوات ترجع إلى العصر الحجرى الجديد.

٤ـ علامة الأكواب أو نحت نقوش على الأحجار والصخور وهى توجد فى أماكن عديدة من الهند

٥ـ رسوم مصنوعة من تراب معدنى أحمر أو من أحجار الدم. وهى تتوفر:

(ا) فى تلال وندبا من أعمال مقاطعة ميرزابور ممثلة بعض الصيادين مصحوبين برماح مسننة. وقد هموا بالانقضاض على الكركدن المنقرض.

(ب) فى كهوف مقاطعة هوشنگ آباد، تمثل زرافة.

(ت) فى تلال كايمور، وهى تمثل صيد الأيايل.

(ث) فى سنگبيوره، وهى تمثل حيوانا على شاكلة القنفر، وأيضاً على شاكلة حصان أو غزال. وكثيرا ما تشابه الرسوم الأسبانية فى العصر المماثل. وإن هذه الرسوم التى هى من ما قبل التاريخ، يعثر عليها إلى جانب الأدوات التى كانت تستعمل فى العصر الحجرى الجديد.

٦ـ القبور: بينما هجر أهل العصر الحجرى القديم جثث موتاهم فى الغابات، كان يصرفها أهل العصر الحجرى الجديد بطريقة الدفن المتمدنة. ولكن المقابر التى ترجع إلى العصر الحجرى الجديد قلما توجد فى الهند. ولقد عثر

على هيكل لجثة بشرية إلى جانب أدوات مصقلة مصنوعة من الفخار والزجاج فى تربة بميرزاپور ووجود مقبرة تضم ٥٥ قبرا مع بعض الأدوات الفخارية فى مقاطعة كولا، وفى تانرام على مقربة من مدراس عثر على أكوام من تراب التى تضم توابيت الموتى الفخارية، منها على شكل مستطيل للاناث، وآخرى على شكل الكمثرى للذكور. وكانوا يدفنون على صورة مكمشة. وفى أماكن أخرى من مقاطعة مدراس مثل چنگل پيت، وويلور، وارکوت عثر على توابيت فخارية مستطيلة مثلها، ولكن مصحوبة تارة بأدوات حديدية. وتوجد القبور الحجرية ذات الأشكال المختلفة فى كل مكان فى مدراس، وبومباى، وميسور، ومقاطعة النظام الدكنية. وإن كانت أغلبيتها ترد إلى فترة ما بعد العصر الحجرى الحديد نظراً للادوات الحديدية التى تضمها. كما أنها تقيم الدلائل على حرق جثث موتاهم وكذلك جرى أهل العصر الحجرى الحديد على طريقة دفن موتاهم فى الأوعية ولكن الأوعية لم تضم رماد احثاث محروقة بل جثثا كاملة صغرت فى الحجم بالسحق أو القطع. وفى ادیچنلور من أعمال مقاطعة تِنِّى ويلى الواقعة على نهر تمراپرنى عثر على مقبرة واسعة تبلغ مساحتها حوالى ١١٤ «ايكر» (أى ٤٨٤٠ يارده مربعة). يضم كل ايكر منها حوالى ألف أوعية مدفونة تحت الأرض. ولا بد من أن أجزاء من مدينة المقابر هذه يرجع إلى العصر الحجرى الحديد نظراً للادوات الحجرية التى تضمها. ولكن القسم الأعظم منها حديث العهد بكثير نظراً للادوات الحديدية الموجودة فيها، وأدوات الزينة المصنوعة من البرونز ومن الذهب أيضاً. وتوجد أمثال الدفن فى الأوعية فى برهمن آباد من أعمال السند أيضاً.

العصر النحاسى

كان العصر الذى تعاقب على العصر الحجرى عصراً حديديا فى جنوبى الهند،

وعصراً نحاسياً فى شمالى الهند. وعلى ما يلوح لم يكن هنالك عصراً برونزيا قبل العصر الحديدى فى الهند إلا فى السند كما سيأتى. والبرونز يتألف من تسعة أجزاء من النحاس وجزء من الصفيح. إن الأشياء المتعددة المصنوعة من البرونز التى اكتشفت فى المقابر الأثرية فى جنوبى الهند هى أشياء تدل على رغد العيش، كالطاسات ويعتقد أنها إما ترجع إلى عصر متأخر أو أنها مستوردة ولقطة من نحاس، أتت من قرية گنجيريا فى الهند الوسطى. فاللقطة تحتوى على ٤٢٤ أداة نحاسية جد قريبة فى الشبه بالأدوات النحاسية القديمة فى ايرلندا، يرجع تاريخها إلى ٢٠٠٠ عام ق. م. وقد ضم الكنز لوحات من الفضة تحتوى على أقراص مستديرة، وتماثيل رأس ثور بقرنيه ولا بد أن هذه الفضة كانت نادرة فى الهند، فلعلها كانت مستوردة أما النحاس فيوجد فى الهند، والمعتقد أنه هو المراد بـ «أيا» الأحمر المذكور فى رگويدا وبالإضافة إلى الكنز فى گنجيريا المحتوية على الأدوات النحاسية قد عثر على أدوات قديمة، وصارات، وسيوف، ورؤوس رماح مصنوعة من نفس المادة فى مقاطعات كانپور، وفتح گره، وميى‌پور، وماثور، بل فى جميع المواضع فى شمال الهند بأسرها، أى تقريباً من نهر هوگلى (فى الشرق) حتى الجانب الأقصى من نهر إندس (فى الغرب)، ومن منخفضات جبال هماليا حتى مقاطعة كانپور

استخدام الحديد

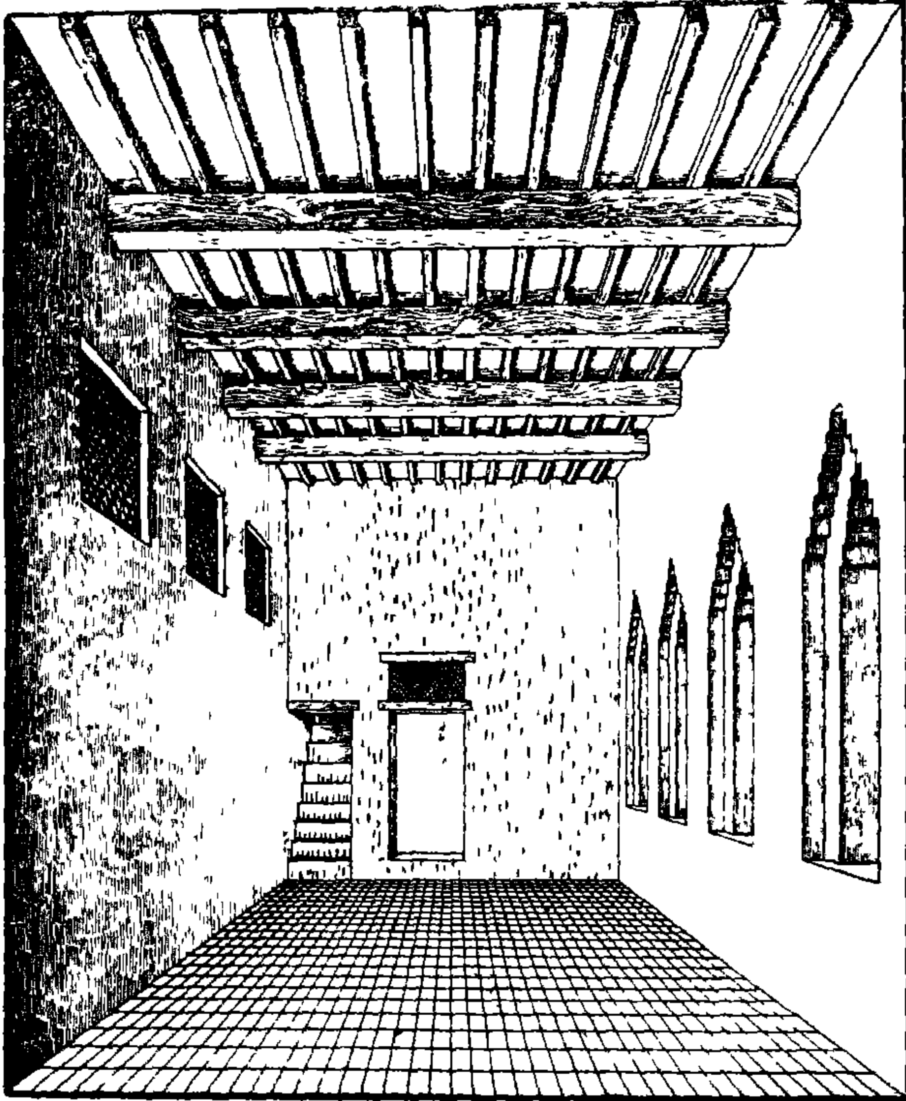
سبق شمالى الهند فى استخدام الحديد على جنوبى الهند، كما سبق البابليون فى استعماله على المصريين. وقد أشار إليه اثرواويدا الذى ليس متأخراً عن ٢٥٠٠ عام ق. م. ويقول هيرودوتس: إن الجنود الهنود الذين حاربوا فى أوربا ضد اليونان فى سنة ٤٨٠ ق. م. تحت قيادة الامبراطور الايرانى اكزرسيس (Xerxes) قد استخدموا أسهاما من خيزران ذات رؤوس حديدية. وفى

الغزوات التي شنها الاسكندر على الهند فيما بعد، فان الهنود — حسب ما رواه المؤلفون اليونانيون — حذقوا استخدام الحديد والفولاذ كاليونانيين أنفسهم. وقيل أيضا أن بعضا من زعماء مقاطعة بنجاب قدموا إلى الاسكندر هدية مائة «تيلنت» (كل تيلينت يساوى ٨٤ رطلا) من الفولاذ.

حضارة إندس (Indus)

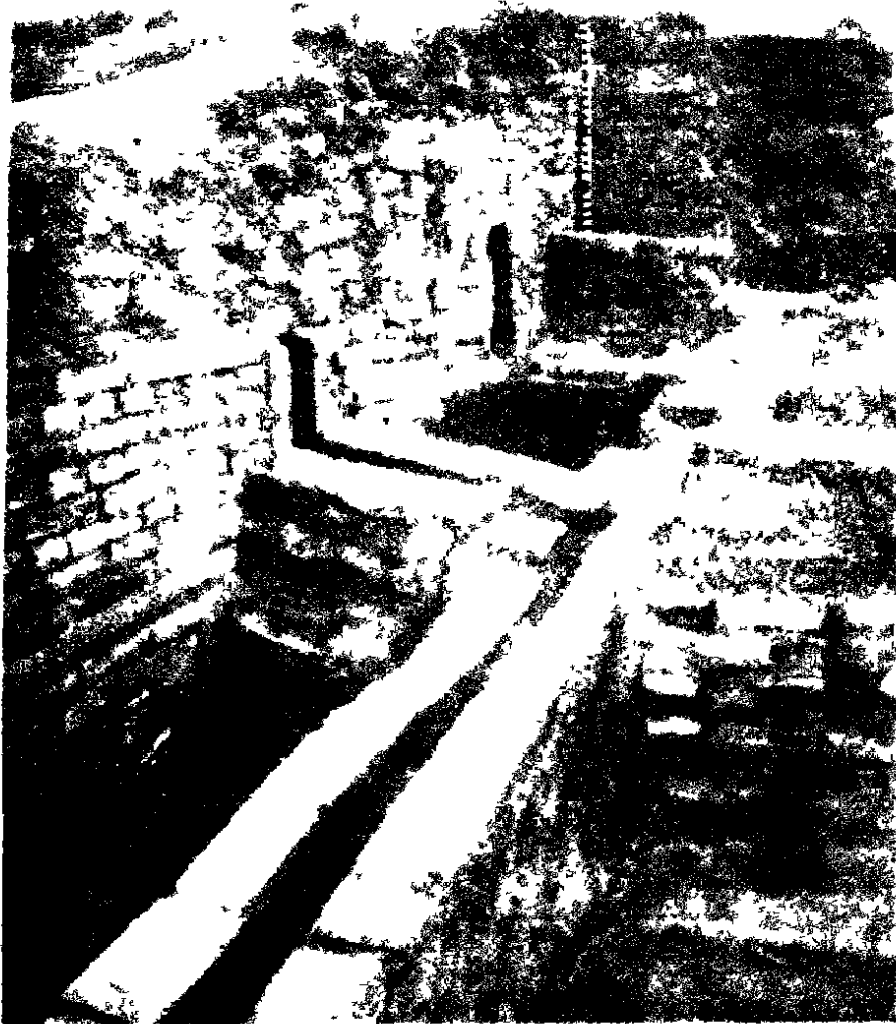
٣٧٥٠ إلى ٢٧٥ ق. م

كانت لدينا شهادات ضئيلة عن فترة ما قبل التاريخ مبعثرة فى طول البلاد وعرضها، إلا أن التنقيبات الأثرية التى أجريت فى المنطقة كشفت النقاب مؤخرا عن مجموعة كبيرة محتشدة مقنعة من الشهادات فى مركزين. هما «هارابا» الواقعة ما بين لاهور وملتان، و «موهنجودارو» (أى مقام الموتى) الواقعة فى مقاطعة لاركانا فى السند. ويستدل من هذه القرائن على قيام حضارة كاملة يمكن أن يشار إليها بحضارة إندس القائمة فى منطقة ذات مياه وغابات، وافرة فى ما مضى مما هى الآن. إن الأمطار فى السند فى تلك العصور القديمة كانت أشد غزارة مما هى عليه الآن بدلالة استخدام اللبنات المحروقة فى الفرن لتغطية الجهات المكشوفة من مبانيهم القديمة، واستعمال اللبنات المحمصة فى الشمس فى تعبئة القواعد وملئها لكى تحفظ من العوامل الجوية ودلالة أخرى هى أختام رسمت عليها صور للحيوانات التى تسكن غابات كثيفة. ودلالة أخرى هى نظام متقن لمجارى المياه الذى أقيم فى المدينة. وكانت منطقة السند فى تلك الحقبة من التاريخ لا تستمد مياهها من نهر إندس (وفروعه) فحسب، بل من مياه نهر آخر هو نهر مهران العظيم الذى بقى جاريا حتى القرن الرابع عشر الميلادى. وكان هـذان النهران يقسمان فى ما بينهما كميات المياه الضخمة المنصبة من الأنهار الخمس الواقعة فى مقاطعة بنجاب. وإليهما يعود الفضل مبدئياً فى قيام هذه المدنية القديمة فى



المنظر الداخلى للقاعة فى موهنجودارو

بقايا حضارة إندس — ٢٧٥٠ إلى ٢٧٥٠ ق م



مجاري في موهنجودارو

السنــد. وعلى نفس النحو عثر السير اوريل ستاين (Sir Aurel Stein) على بقايا مستعمرات وسيعة غنية، تشير عهدها إلى ما قبل التاريخ فى إحدى المناطق المجاورة لجنوبى بلوچستان. وقد استمرت رفاهية السند وإزدهارها حتى عهد امبراطور فارس فى القرن الخامس ق. م. (كانت السند فى عهده مقاطعة لها)، وفى عهد الاسكندر الأكبر الذى رآها جزءاً أكثر ترعرع دون غيرها من أجزاء الهند تحت الحاكم موسيكانوس (موشيكا أو موچوكرنا؟). وهذه المنطقة كانت معرضة للفيضانات كما يستدل على ذلك بالأسس الراسخة والردهات العاليــة التى استخدمت فى بناءات موهنجودارو.

قامت على سطح الموضع الذى عليه موهنجودارو سلسلة من قمم يتراوح علوها من ٧٠ إلى ٢٠ قدم. وفى المساحات الواقعة ما بين هذه القمم وبين مستوى المياه فى بطن الأرض، عثر على سبع طبقات من البقايا، يرجع عهد الثلاثــة الأولى منها إلى عصر حديث وثلاثة أخرى إلى عصر متوسط قبله، وأما السابعة فترجع إلى العصر الابتدائى. والمعتقد أن هناك طبقات أخرى أكثر قدما من هذه الآثار دفنت تحت المياه على عمق ٤٠ قدما من سطح الأرض، على أن الطبقات التى اكتشفت إلى الآن على قيام حضارة كاملة ترد أسسها ومبدأها إلى فترة أقدم أى إلى ما لا يقل عن ألف عام.

بقاياها: مبانيها

وهى تحتوى على أماكن للسكنى وأماكن للعبادة وحمامات عامة شعبية للأغراض الدنيوية والدينية، ودار أخرى واسعة فسيحة على شاكلة القصر واجهتها ٨٥ قدما وناحيتها القصوى ٩٧ قدما، ولها قاعة فسيحة للاستقبال ومدخل واسع، وغرفة البواب، وحوش تبلغ مساحته ٣٢ قدما مربعاً تحيط به غرف فى الطابقين الأعلى والأسفل مرصوفــة بالطوب، ولها مجرى مغطى يتصل بمجارى عامودية

تصب مياهها فى آنية فخارية دفنت تحت رصيف الحوش لمستراحات الطبقة العليا. وهنالك مبان أخرى متسعة غاية الاتساع عنها، ويحتمل أنها هياكل المعابد. وعثر أيضاً على قاعــة فيها ٢٠ عموداً من الطوب تبلغ مساحتها تسعين قدماً مربعاً، ويرجع عهدها إلى الحقبة الوسطى.

ولكن أروع بناء هو المغسل الكبير الذى يستعمل كدائرة مصحة مائية رسمية، وقد أضيفت إليه ملحقات عديدة ويتألف هذا المغسل

(أ) ساحة مربعة مفتوحة ذات ردهات تسمها دهاليز وغرف من جميع الجوانب.

(ب) مغسل للساحة بطول ٣٠ قدماً وعرض ٢٣ والعمق ٨ أقدام فى وسط المساحة المربعة، وله مجموعة من الدرج فى الأطراف.

(ت) طبقة عليا من الخشب بدليل الفحم الحجرى أو الرماد الذى عثر عليه.

إن تشييد هذا المغسل للساحة يعكس فصلاً وافٍ فى الكفاءة الهندسية فى ذلك العصر. ولكى يكون مسبكاً وتدعيماً لأسسه، قد صنع باطنه من الطوب الناعم المغطى بطبقة من طين الجبس يبلغ سمكها أربعة أقدام، ودعمت هذه بطبقة سمكها بوصة من القير الذى لا تؤثر عليه الرطوبة، ثم عززت من ورائها بجدار خفيف آخر من الطوب المحروق، وأتى بعدها حشوة من الطوب الخام، وعليها مرة أخرى سور مستطيل من الطوب المحروق الذى أحاط الجميع. ولهذا بقى هذا الحوض محفوظاً إلى هذا الحد إلى الآن، بعد أن انقضى عليها زهاء خمسة آلاف عام.

ومن إضافات هذا المغسل الكبير يفرض وجود حمام أو مغسل فى الهواء الدافئ، فهنالك آثار جدران قصيرة تحمل أرض الحمام، ومداخن عامودية لتدفئة الغرفة دلالة نظام التدفئة بمحرق تحتانى.



المغسل الكبير

آثار قديمة أخرى ، وفنون لطيفة ، وصناعات

إن نمو هذه المدن الابتدائية توقف على العوامل الزراعية والتجارية. وهنالك عينات قمح وشعير أخرجت من الدفن كانا يزرعان في ذلك الحين — وعينات مسحق ورحى من أحجار غير مستديرة لطحنها. وكانت تزرع أيضاً شجرة التمر، بدلالة ما عثر عليه من النوى.

تألف غذاء سكان إندس من لحم الخروف، والبقر، والخنزير، والطيور، ولحم السلاحف البحرية، والبرية، وأسماك الأنهار، أو ما جيء بها من البحر. وقد عثر على عظام أو أصداف كل هذه الحيوانات في الخرائب.

ويستدل من بقايا الهياكل أن الحيوانات التالية كانت تدجن في ذلك العصر: الثور الأحدب، والجاموس، والغنم، والفيل، والجمل، والخنزير، والدجاج، ويمكن أن يكون الكلب أيضاً.

واكتشفت أيضاً البقايا للحيوانات البرية التالية: النمس، والترباب (شبيه بالفار)، والفأر الأسود، والايل، وتماثيل صغيرة لحيوان بري يشبه الثور، والكركدن، والنمر، والقرد، والدب، والأرنب.

المعادن ومواداتها

قد استعمل الذهب والفضة، والنحاس، والصفيح، والرصاص، إلا أن الحديد لم يك معروفا على الاطلاق وقد تبين أن الذهب المستعمل يتضمن خلطة من الفضة تعرف بـ «إلكترون» (Electron) ولا بد من أنه تسرب إلى البلاد عن طريق التداول التجاري من أماكن كولار، واناتابور في الجنوب مثلا. فالذهب من هذا القسم يوجد هناك. وكان الذهب يستخدم في صنع الحلى.

والنحاس الذي استعمل في معية الرصاص لا بد، وأن كان مستورداً من راجپوتانا، أو بلوچستان، أو إيران، التي توجد فيها الرصاص بمعية أحجار النحاس

المعدنية. والآن استعيض الحجر بالنحاس فى صناعة الأسلحة، والأدوات، والآنية المنزلية كرؤوس الرماح، والسكاكين، والفأسات، والأزميلات؛ أو الحلى كالأساور والحلقات وغيرها. وقد وجد النحاس هنا فى الطبقة الابتدائية أقدم عهد بكثير من ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد. ويثبت استعماله على نطاق واسع فى العصور الابتدائية بكثير، بالأدوات المصنوعة من النحاس المدقوق التى وجدت منها ٤٢٤ قطعة فى گنجيريا كما ذكرناها آنفا.

أما الصفيح فلم يستعمل بذاته بل كان يخلط مع النحاس لانتاج البرونز المحتوى على ٦ إلى ١٣ فى المائة من الصفيح. وكان البرونز يؤثر على النحاس فى صناعة الأدوات ذات الأطراف الحادة أو لألطف إنجاز. وحيث إنه اكتشف فى الطبقة الابتدائية القديمة فلا بد أنه كان مستعملا قبل عام ٣٠٠٠ ق. م. وهذا ما يبرر النظرية القائلة بأن الهند لم تعهد عصراً برونزياً بالكلية. إن الموارد التى كان يستمد منها البرونز والصفيح المستعمل فى مناطق السند كانت خارج الهند، وكانت تنقل إلى الهند من إيران الشمالية وأفغانستان العربية، عن طريق «ممر بولان» (Bolan Pass). ومقاطعة هزارى باغ كانت المصدر الوحيد فى الهند على أنها لم تكن فى متناول سكان إندس نظراً لبعد المسافة التى تفصل بينهما.

واستخدم فى البناء وأعمال أخرى أحجار مختلفة، أوتى بها من دانى الأماكن وأقاصيها. والحجارة الكلسية المستوردة من سكهر كانت تستعمل فى تغطية المجارى كما أن تلال كرتار قدمت اللازم من الجبس الذى يستعمل كمونة ورخام فى صنع ستارات مشبكة، والأوانى، والتماثيل. واستخدمت الحجارة الصلبة من المناطق المجاورة، كصخر البلور والحجر النارى، فى صنع المسحق والرحى، ووقبات الأبواب، والمثاقيل للوزن. ونحتت أحجار الصوان وسنت حتى

تصير مثاقيلا وصقالات، أو شحذت لتستعمل كالسكاكين، كما استعمل أنواع أخرى من الحجارة لصنع الخواتيم والتماثيل الصغيرة. أما الحجارة الصفراء من جيسلمير فهي المادة التي توجد في التماثيل وغير ذلك من طقوس العبادة. واستخدمت أنواع مختلفة من الحجارة الشبيهة بالكريمة في صنع المسابح وأدوات الزينة كالحجر اللوري، أو حجر الدم، أو العقيق الأحمر أو اليشب، أو اليشف، أو الزبرجد. والحجر الأخضر الدقيق « امازون » (Amazon) الناعم ورد من مصدره الوحيد في الهند أي من دودابتا (Doddabetta) في جبال نيلگيري، والحجر الكريم الأزرق « أماتست » (Amathyst) من مصيدة دكنية، والحجر اللازورد (Lapıslazulı) جاء من بدخشان، والفيروز من خراسان، واليشم (Jadıte) من جبال پامير، وتركستان الشرقية، والتبت.

واستعمل أيضا مواد أخرى كالعظم، أو العاج، أو الصدف، أو الخزف. وجاء الصدف من السواحل الهندية، والخليج الفارسي، أو البحر الأحمر.

ويستدل من مجموعة فلكات المغزل التي عثر عليها في بيوت موهنجودارو أن الغزل كان عادة مألوفة بين عامة الطبقات الغنية والفقيرة على السواء. ودلالته التفاوت في الفلكات المكتشفة بعضها عال من الخزف وأخرى رخيصة من الفخار أو الصدف. أما المواد التي استخدمت في صنع المنسوجات فكانت الصوف والقطن وقد دلت التحقيقات الفنية حول كسرات من القطن وجدت ملتصقة بوعاء فضي على أن القطن المستعمل في ذلك العصر يشابه القطن الهندي الحالي الخشن بما يتميز به من تركيبه الملفوف. وعلى هذا فان القطن الهندي المحلي كان معروفا عند أهل بابل باسم « سندو » وعند أهل اليونان باسم « سندون ». وإنه كان قطنا أصليا، وليس قطنا من نتاج الأشجار حسب الاعتقاد السائد إلى الآن.

أما أزياء تلك الأيام فشملت الشالات كما نقش على تمثالين. وكان الرجال

طلقون لحى قصيرة وسوالف، وكانوا يحلقون شواربهم تارة كما كان فى سومر، كانوا يسرحون شعرهم إلى الوراء ثم يعقدونها بمساعدة شبكة ويتركونها فى ظهر لرأس. وتارة عثر على غطاء للرأس تحعد إلى نقطة فى ظهره بصورة مجعدة أو غطاء أطول بحافة ملفوفة وعثر على ثلاثة تماثيل للراقصات وقد لففن شعرهن فى كومة بحيث تمر بالأذن اليسرى وتتدلى على الكتف الأيمن.

وشملت الحلى فى الدرجة الأولى القلادات، وعصابات للجبين، والأساور، وخواتم الأنامل للرجال والنساء، والزنار. والحلقات، والخلاخل. كانت الحلى تصنع للأغنياء بالذهب. والفضة. والخزف، والعاج، أو بالحجارة الكريمة الوسطى، وللطبقة الفقيرة بالصدف. والعظم، والنحاس. والمحار. وكان العقيق الأحمر يثقب بحذق ومهارة يستعمل كالخرزات فى الزنار

إن حضارة إندس تنتمى إلى العصر النحاسى، وبرهانه استعمال الأسلحة والأوانى الحجرية والنحاسية والبرونزية فى آن واحد. وكانت أسلحة الحرب والصيد القوس والسهم، والرمح، والفأس، والخنجر، والصولجان على أن صنع السيوف لم يوصل إليها بعد ولا إلى الدرع لوقاية الجسم. ويذكر من بين المعدات الأخرى الطار، والمناجل، والمناشير، والأزميلات، والمواسى، المصنوعة من النحاس والبرونز، والسكاكين والفأسات المصنوعة من المعدنين المذكورين ومن الأحجار الصوانيـــة والحجارة الصلبة. وبعض الأشياء الحجرية كالصحون والطاسات، والزهريات، وصناديق الزينة، ولوحات ألوان المصور، والمصقلات أو المثقالات، وقد تركت مهارة عصر الحجرى أو النحاسى وراثها بكثير.

ونظرا إلى قلة اللقطات من الأسلحة التى تستخدم فى الهجوم أو الدفاع، يمكننا أن نعتقد أن سكان موهنجودارو لم يكونوا عسكريين إلى حد كبير، ولم تساورهم مخاوف بوقوع غارات عليهم.

ومثقالات الوزن الاندسية، لها أهميتها. الصغار منها كانت مكعبة من حجر صوانى أو من الأزدوار، والكبار منها مخروطة الشكل. وكانت هذه المثقالات أكثر إتقانا واستقامة من مثقالات إيلام وبلاد ما بين النهرين. وسلسلة نسبة بعضها ببعض كانت ثنائية فى الابتداء كمثقالات سوسا ولكن اعشاريا فى ما بعد، أى ١، ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، ٦٤، ١٦٠، ٢٠٠، ٣٢٠، ٦٤٠، ١٦٠٠. والمثقال المستعمل بكثرة كان ذى نسبة ١٦، ووزنه ١٣٫٦٧١ جرام.

وكانت الأوانى المنزلية السائدة فخارية ذات أنواع وأشكال مختلفة: حمالات التقديم، والكؤوس، والمسحات وجرات التحرير، وأمثالها. ووجود عدد كبير من الكؤوس أو أقداح الشرب يظهر عادة الاندسى — ولا تزال عادة هندوسية — أن تبد الأقداح بعد استعمالها للشرب مرة واحدة.

وكانت الأوانى الفخارية الأندسية تصنع عادة على الدواليب، وتصبغ باللونين الأحمر والأسود. وبعضها كانت أيضا معلولة، ومتعددة الألوان، ومصقلة. والفخارات المصقلة الاندسية هى أقدم نموذج من نوعها، وأيضا من نوع صناعة ناعمة فى العصور القديمة فى العالم. وقد ظهرت فى بلاد ما بين النهرين ١,٠٠٠ عام ق. م. وبعد ذلك بكثير فى مصر. وصنعت ألعوبات فخارية متنوعة بكثرة، منها الخشخيشة، والصفارات (على شكل الطيور)، وأجسام الرجال والنساء، والطيور، والعربات. وكانت الطيور مركبة على دواليب، والثيران مشددة إلى نير العربات. والعربات هى أقدم نماذج ما عرف من نوعها، كالعربة المنقوشة على إحدى الحجارة فى «أور» (Ur) — (يؤرخها «وولى» (Woolly) بعام ٣٢٠٠ ق. م).

وأصحاب إندس قد اخترعوا الكتابة، واستعملوا طريقة كتابة تنتمى إلى نفس النظام المتداول فى ذلك العهد، شبه الكتابة التصويرية كما كان الايلامى

(Elamitic) فى بداية الأمر، والسميرى (Sumerian) القـديم، والمينوى (Minoan)، والمصرى وغيرهم. وقد عثر على ٣٩٦ علامة لهذه الكتابة، وما عدا ذلك نقوش على الشمع، والأحتام، وقطعات الأخزاف، ولوحات نحاسية وأيضا على الأساور الطينية المزججة ووجدت «العلامات» مزدوجة وعدلت الحروف باضافة حركات أو خطوط.

وتشاهد أيضاً مجموعة خطوط لن يتعدى عددها اثنى عشر، وقد تكون لها القيمة اللفظية لا العددية. ويلاحظ أن الكتابة كانت من الأيمن إلى الأيسر، باستثناء ما يكتب منها للتكميل وكأن وفرة عدد العلامات تدل على أن الكتابة لم تكن هجائية بل كانت صوتية

وتبدو من الآثار والبقايا عدم وجود ذلك الجمال الذى ينشأ فيه الفن اللطيف. ولكن فى الأشياء الصغيرة كالخواتم وغيرها يوجد بعض الفن ومن نموذجها الثور الأحدب، والجاموس، وثور الخلاء نقشت على الختم، وأيضاً صورة ثور شاب قوى المظهر نقش على المحار، وكلب صيد قوى نقش على حجر الحرارة، والخروف الجالس، والسحاب، والقرد المصورة على الأحتام. فهناك فى هذه النقوش حقيقة ومعها لطافة التحفظ.

ولا تتوفر أمثلة متعـددة من تمثال فنى للجسم الانسانى. والتماثيل الصغيرة التى تتوفر من المحار لا تبدى أى لطافـة فى الفن. ومن التماثيل الحجرية — وهى قليلة — ثلاثة تستحق الذكر فالأولى منها تمثل عابدا (Yogi) وقـد صنعت عيناه المفكرتين عـلى أصل الأنف. والثانية تمثل رأساً يبرز منه العظم الوجنى، ووجهاً عريضاً ذا شفتين رقيقتين، ولكن الأذنين مثل صحنين، قبيحتان. والثالث تمثال جالس مرتديا شالا. ويجدر بنا فى ضمن هـذا الموضوع أن نشير إلى تمثال برونزى يمثل راقصة لها ذراعان ورجلان طويلان لا يناسبان، وهى

ضاربة رجليها على الأرض بمناسبة نغمة الموسيقى . وفى هارابا يوجـد تمثالان صغيران فائقان، أحدهما صنع من الحجر الأحمر المستورد من أماكن نائية، يعكس صورة صادقة للاجزاء اللحمية، والآخر، وقد نحت من بلاط ذى لون رمادى داكن، يمثل راقصاً واقفاً على رجله اليمنى بينما رفع رجله اليسرى عاليا، سلف لـ « سيواناتاراجا ». وإن هذين التمثالين يسبقان الفن اليونانى بفضل صداق أخاذ فى تشريح الجسم، على نفس النحو الذى يعتبر فيه التمثالان المصنوعان من الشمع المشار إليهما آنفا، مقدمة لما صوره اليونانيون من رسوم الحيوانات.

الديانة

إن المعلومات التى عثر عليها فى موهنجودارو وهارابا فى الموضوع ضئيلة جدا. وقد عثر على عدد كبير من تماثيل فخارية للاناث التى تشابه ما عثر عليه منها فى بلوچستان، وإن لم تكن الأخيرة هذه صورا كاملة.

والتماثيل الصغيرة النسائية المشابهة للتماثيل المعثورة عليها فى وادى إندس وبلوچستان، وجدت أيضا بكثرة فى بلدان غربى آسيا، وحول السواحل الأفريقية فى إيلام (Elam)، وبلاد ما بين النهرين (Mesopotamia)، وتراسكيسپيا (Transcaspia)، وسوريا، وفلسطين، وقبرص، وكريت، والبلقان، ومصر. والاعتقاد سائد أن هذه التماثيل تنوب عن الالاهة «الأم الكبرى» و«الفطرة الكبرى». وهذا يوافق تقاليد الهند، الهند التى هى منذ عهد قديم مهد العبادة للأم المقدسة، أم اديتيا الواردة فى رگويدا، إلى الالاهات القروية فى عهدنا العصرى الذى تظهر فيه كمعبودات الشعب الوطنية فى الهند، آريين كانوا أم خلافهم.

وعثر فى هارابا على ختم مستطيل عجيب يمثل الكون أو الالاهة «الأم»

وقد انبثق من رحمها نبات، ووقف هنالك رجل بيده سكين، ووقفت امرأة رافعة يديها ولعلها كانت لأن تضحى.

وكذلك عثر على خاتم يمثل إلها مذكراً على شاكلة الاله سيوا، ذى ثلاثة وجوه وثلاثة عيون، وقد تربع على عرشه على نحو طريقة ناسك (Yogi) ووقف إلى جانبه حيوانات، الفيل والنمر على الأيمن، والكركدن والجاموس على الأيسر. وإيل دوقرنين واقف تحت العرش. ويصدق المطر لقب «پشوپتى» لـ «سيوا» يعنى به «رب الحيوانات» الايل الذى يشير إلى العابات جاء كمقدمة للنحوت الودية التى تمثل حديقة الأيايل التى ألقى فيها بودا خطبته الأولى. وفى هذا الرسم ميزة أخيرة للاله سوا التاريخى، وهى القرنان يتوجان على رأسه يرمزان إلى الألوهية. وهذه هى الميزة التى تسبق الرمح ذى ثلاث شوكات لـ «سيوا» (Sanas) أو ثلاثة درر للوديين.

وهناك رسم آخر عثر عليه فى موهنجودارو ممثلا نفس وضع الناسك، وإلى جانبه «ناكا» راكعا فى العبادة له رافعا يديه على جانبيه ولقد عثر على رسم آخر يضم صورة نفس الاله فى نفس الوضع ولكن له وجه واحد فقط وقد ذكرنا الرسم المنحوت على الحجر لناسك وعيناه على مبدأ أنفه.

ويتصور المستر چاندا (فى مجلة «انتقاد العصرى» [Modern Review] لأغسطس ١٩٣٢) أن شكل الواقف بأربع أذرع الذى يوجد فى كتابة العلامات فى إندس هو لاله، ويرمز إلى الالاهة ذات الأذرع الأربعة التى ضمها معبد الآلهات فى إندس، وهو يسبق إله الهندوس المتأخر ذا أربع أذرع مثل براهما، أو وشنو أو سيفا.

وهو أيضا يدل على أن الآلهة الواقفين المنقوشين على حوالى ست أختام من موهنجودارو (لوحة ١٢ ولوحة ١١٨ صورة ٧ من كتاب السير جان مارشل





سيوا بشوبتي (رب الحيوانات)



راجع ص
٥٦ - ٩٥

A · لأختام — صور (a) العزال (b) النمر (c) الفيل (d) الثور الأحدب والدجاج الحرشى (e) الخروف (f) الثور (g) الجاموس البرى (h) الثور البرى (i) التمساح (j) الثور الأحدب (k) الكركدن .

عن موهنجودارو) هو آلهة فى وضع «يوگا» المسمى بـ «كايوتسركا»، والوضع الواقف ينتمى إلى نساك الجيبين، كما رسم مثلا فى التمثال الشهير: «حوناريشاباوا» الذى يرجع تاريخه إلى القرن الثانى الميلادية الموجود فى متحف متهرا (Muthra). واللفظ «ريشابا» معناه الثور، الذى هو العلامة للجيبين. وإنه لمن المستغرب أن الأختام عدد ف(f)، ج(g)، ه(h)، فى لوحة ٢ (إب) تظهر إلها واقفا ولديه ثور فى الأمام. هل هى المقدمة لـ «ريشابا»؟ فإن كان كذلك فلا بد لمذهب الجيبية أن يأخذ محله كتفا بكتف بالمذهب السيوى (Saivism) كمذهب من أقدم المذاهب الحاسية العهد، مساعدا على سد الثغرة القائمة بين حضارة إندس وبين الحضارات الهندية المتعاقبة على اعتبار أنها مرحلة من مراحل التطور الثقافى العمومى.

وإلى جانب عادة «شكتى» و «شيوا» كانت هنالك عادة «لنگا» و «يونى» كما يستدل على ذلك من رسمين نقش عليهما بصفة واقعية لا إلتباس فيها على أحجار عثر عليها فى حوض إندس وبلوچستان وعلى أحجار الأختام المتعددة. ولا شك أن ثلاثة أنواع من الحجارة الطقوسية قد أسفر عنها النقاب فى موهنجودارو وهاراپا، وهى ثلاث أحجار للخواتم المكمدة اليونانيـــة والذكر (Phallic)، ويونى (Yuni)، الصغار كانت تحمل كتعاويذ وعددها منها كثير، والكبار منها كانت طقوسا للعادة.

وكذلك يوجد دليل على عادة الأشجار على نوعين. الأول: عادة الأشجار فى أشكالها الطبيعية كما نقش ذلك على الأختام فى هاراپا. أما فى الحالة الثانية فلم تكن الشجرة طقس العادة بل الروح التى تتقمص فيها. ومن أروع الأختام التى عثر عليها فى موهنجودارو، خاتم يظهر الاله — فى صورة جسم عارى — بين فرعى شجرة، والشجرة هى «پيپل» التى اشتهرت بشجرة العرفان لبوذا. وتتجلى

عبادة هذه الالاهة فى سبع صور للاناث، قد تدلى شعرهن إلى الوراء، وهذا يدل على أنهن من عدة الالاهة. وأيضاً فى رسم شخص متضرع راكع نصف الركوع وله شعر طويل. وقد انتصب خلفه حيوان مزدوج، بعضه ثور وبعضه معزة، وله وجه الانسان، ولعله بمثابة واسطة لالهة شجرة پيپل. ويوجد بعض أختام أخرى، أحدها يبدى شجرة وقد انشق من رأسين مزدوجين للحيوان ذى القرن الواحد، والبقايا (من هاراپا) تظهر معزة أو حيوانات قريبة مع الالالهة وعبدها. وتسلسل تقليد هذا المذهب يظهر فى منحوتات «بارهوت» و «سانچى» التى تظهر «ياكشا» أى حيات الغابة، ولكنها فى محل ذيلى فى دار الآلهة.

ويوجد فى موهنجودارو دليل عبادة الحيوانات فى صورها على أنواع مختلفة من الأختام، وعلى الأوانى الفخارية، وعلى المنحوتات الحجرية. يدل على ذلك أولا صور مخلوقات أسطورية أو مركبة، كمعزة بوجه الانسان كما ذكر آنفاً، أو شكل بعضه من خروف أو تيس وبعضه من ثور وبعضه من فيل، أو شكل مخلوقات وهمية ذات رؤوس ثلاث نصفها آدمى والنصف الآخر بقرى، هاجماً على نمر قرنى (كأنه «انابى» أو «أوكيدو» السميرى من منحوتات أربع آلاف عام ق. م.)، واستعمال القرون للآلهة.

ثانياً، رسمت مخلوقات التى ليست أسطورية كلياً، كالحيوان ذى القرن الواحد، ووحوش أخرى ذات قرنين مصحوبا بحورات، وحيوانات تمثل عمال دينيون من الجن.

ثالثاً، رسوم حيوانات حقيقية طبيعية، مثل:

(١) جاموس البحر

(٢) ثور الخلاء الهندى

(٣) الثور الأحدب

(٤) الكركدن الهندى

(٥) الثور القصير بدون حدبة

(٦) النمر

(٧) الفيل الهندى

وتبدو بعض هذه الحيوانات، لا سيما النمر، والكركدن، وثور الخلاء آكلة من الأوعية دلالة على قربان الأطعمة إلى البهائم التى اعتقدت آلهات، لأنها لا يمكن أن تكون بهائم أليفة

وأخيراً هنالك تماثيل ومنحوتات أخرى للحيوانات والطيور: الخروف، والخنزير، والكلب، والقرد، والدب، والأرنب، والسحاب، والببغاء، وطيور غيرها، منها ما كانت على شاكلة الألعوبات، وأخرى مقدسة كالعنز والكبش رسمت على الفخار بمهارة فنية، لاستعمالها كتعاويذ. ويظهر بعض هذه الحيوانات كوسطاء للآلهة الهندوسيين، مثلا الثور لسيوا، أو الأسد لدرگا، أو الجاموس لياما، أو التيس لبراهما، أو الفيل لاندرا، أو يعدّ القرد كأنه هومان، أو الثور البرى لگورى.

وأخيرا، كان التطهير بالغسل أو باستعمال الماء بطريق آخر، من نظام هذا المذهب. وهذا يفسر الأنظمة المتقنة للغسل التى توجد فى بلد موهنجودارو، والتى تميزها عن غيرها من سائر المدن التاريخية القديمة.

الخلاصة

فتتألف ديانة أهالى إندس من

(١) عبادة الالاهة «أم» أو «شكتى»؛

(٢) عبادة إله ذكر — وهو السلف لسيوا؛
(٣) عبادة الحيوانات — طبيعية، أو مركبة بالانسان والحيوان، أو خرافية؛
(٤) عبادة الأشجار على حالتها الطبيعية أو الأرواح التى تتقمص فيها؛
(٥) عبادة الأحجار الجامدة، أو الأشياء الأخرى، أو عبادة رمز لنگا ويونى؛
(٦) عبادة الثروة، كما يظهر فى عبادة الحورات المقدسة؛
(٧) الاعتقاد بالتعاويذ والطلاسم الذى يدل على اعتقادهم فى الجن؛
(٨) ممارسة الرياضة النسكية (Yoga).

ويلاحظ من هذه المميزات أن هذه الديانة كانت رغم بعض العناصر الدخيلة كما ذكرناه، نموا محليا، وسلفا نسبيا للهندوسية التى ما زالت مميزاتها كطقوس شكتى وشيوا عند «ناگا» وكعبادة الأشجار والحجارة وعبادة الذكر و «يوگا».

تصريف الموتى

كان أهل إندس يتخلصون من موتاهم بالحرق. ويثبت ذلك مما عثر عليه من أوعية مخصوصة لحفظ رماد الجثث المحروقة، أو أوان أخرى محتوية على البقايا البشرية، من عظام محروقة ورماد، وإلى جانبها أوعية أخرى مملوءة من تقدمة محروقة وغيرها، وكذلك أدوات متعددة أعدت لاستعمال الموتى فى الحياة الآخرة. وعثر أيضاً على أوعية الدفن تحتوى على أوان للتقدمة وأشياء أخرى للموتى، ولكن عارية من عظام بشرية. ولعل العظام المحروقة التى بقيت بعد حرق الجثث طحنت فى مسحوق ثم بددت، كما هى العادة الجارية فى پنجاب. وقد وفق السير أوريل استائن إلى اكتشاف عدد من هذه الأوعية للدفن، ومن القبور الفارغة التذكارية فى أماكن مختلفة فى بلوچستان. وعادة دفن الموتى إما جزئياً (كما كانت العادة فى دفن العظام الباقية من الجثث بعد أن أكلتها الحيوانات المفترسة والطيور) أو كلياً كانت نادرة. ويوجد أمثلة الدفن

الكلى فى واحد وعشرين هيكلا عثر عليها فى موهنجودارو، سبعة منها فى الشارع العام والباقية فى غرفة، وهى ترمز إلى ثلاث طراز سلالى ــ سلالة «استراليائى» (Australoid) الابتدائى، وسلالة البحر الرومى، وسلالة «آلپ» (Alpine). ويستدل من الطبقات التى عثر فيها على هذه الهياكل أن القبور تنتمى إلى عصر التقهقر لموهنجودارو. وعثر فى هاراپا وبلوچستان على عـــدة نماذج أخرى من الدفن الكامل. ولـكنها متأخرة العهد.

الامتـــداد

الآثار المدفونة التى أخرجت من المكانين فى موهنجودارو وهاراپا تشير إلى وجود حضارة مشتركة متناسقة قد مدت جذورها عميقة فى سائر السند وپنجاب. وقد عثر أيضاً على أماكن أخرى فى هذه المناطق يرجع تاريخها إلى العصر النحاسى، كما أن هناك طبقة حضارة أقدم من العصر النحاسى، تستنبط من الأشياء الفنية التى تنتمى إلى العصر الحجرى القـديم، والتى عثر عليها فى السند كرجمة الحجارة على القبور ومخابىء الحيوانات وعمارات أخرى حجرية خشنة، وكذلك ما وجد فى جبـال روهرى وكرثار من قشور وأصل الأحجار الصوانيـة. هكـذا سبقت ثقافة العصر الحجرى القديم على حضارة موهنجودارو فى السند.

المصادر والاشتراكات

كان تطور حضارة إندس هذه جزءاً من حركة أوسع، ظهرت فى نمو حضارات ابتدائية أخرى مثلها خلال العصر النحاسى فى المناطق الآسيوية الأفريقية الواسعة حتى غربى إيران وبلاد ما بين النهرين. وهذه الحضارات هى كسـات للأنهر الكـبرى: النـيل فى مصر، والفرات ودجـلة فى بلاد ما بين النهرين، وقارون وكركة فى غربى إيران، ونهر هلماند فى سايستان. وعلى ذلك فليس من

الغريب أن تكون أودية أنهار السند وبنجاب الواسعة الخصبة مراكز لهذه الحضارة الابتدائية، أو إنه ليس بمستغرب إن وجدت فى الاكتشافات الجديدة دلائل امتداد الحضارة إلى أودية جمنا وگنگا، وهما أكثر وسعة وغزارة.

إن هذه الحضارات المتعددة، لكل واحدة منها خصائص امتازت بها، إلا أن هنالك عوامل مشتركة فى ما بينها. على طريق المثال، اخترعت كل واحد من الأقاليم لنفسها علامات لكتابة الكلام فالكتابات الهيلوغرافية فى مصر تختلف كليا من كتابات كريت (Crete)، والكريتية من السميرية، والسميرية من الايلامية (Elamite)، وهلم جرا. ولكن مع هذا الاختلاف هناك فكرة مشتركة، وهى استعمال علامات صورية ليس لمجرد تقييد الأشياء أو الأفكار فحسب، بل لتقييد الأصوات أيضا ويوجد مثال متشابه فى صناعة الغزل والنسيج — فبينما استعمل أصحاب إندس القطن كان أصحاب النيل يستخدمون الكتان ولكن كان فن صناعة الغزل والنسيج معروفا فى المنطقتين كملك مشترك فى العالم المهذب فى تلك الأيام. وينطبق هذا الكلام على صناعة الفخار أيضا كان لكل منطقة أساليب وأشكال خاصة لأوانيها الفخارية، ولكن دواليب الفخار وفن ثبت الألوان على الأوانى بواسطة الوقود كان معروفا لديهم بدون فرق. ورغما عن وجود هذه الأفكار والاختراعات المشتركة بينها، بقيت حضارة إندس بارزة ومحلية فى مميزاتها المختصة، كما بقيت شاكلة مخصوصة لكل واحدة من الحضارات النهرية المعاصرة الكبرى.

ومع أنه سبق لنا أن أشرنا إلى المميزات الهندية الخاصة التى تنطبع بها حضارة إندس، سنقوم هنا بتلخيصها على الوجه التالى.

تحتوى المميزات على:

(١) استعمال القطن للمنسوجات الذى لم يعرفه العرب إلا بعد ألفى أو ثلاثة آلاف عام؛

(٢) وجود مستوى أعلى للحياة فى المدن، ووسائل الراحة كما يتضح من المنازل الفسيحة، والمغاسل، والآبار، ونظام المجارير لمنفعة المواطنين العاديين، التى لم تكن معروفة فى مصر القديمة وفى بلاد ما وراء النهرين، أو فى بلاد أخرى فى غربى آسيا التى لها عمارات ارستقراطية كالقصور الفخمة، والمعابد، والقبور، ولكن بدون اهتمام إلى مساكن الطبقات الفقيرة أو الشعب؛

(٣) بلوغهم مستوى عال فى فن الحفر أو النقش على الحجارة الكريمة، كما يتضح من تماثيل صينية أو من نقوش الحيوانات المنحوتة على الأختام كالثيران، أو من التماثيل البشرية الصغيرة الجذابة بفضل جمال صنعتها، كما ذكرنا من قبل؛

(٤) الديانة التى تبدى عيانا سلفيتها للديانة الهندوسية الحاضرة فى بعض هيئاتها، كما قد وصفناها.

عصرها

يستنبط عصر حضارة إندس من التشابه الذى رأيناه فيما قبل بينها وبين الحضارات الأخرى القديمة التاريخية كالحضارة الابتدائية التاريخية التى قامت فى سومار، والحضارتين المتأخرتين قبل رواسب مياه الفيضان لايلام، وبلاد ما بين النهرين. وقد كشف الغطاء عن التشابه القاطع فى مختلف المواد الأثرية التى عثر عليها فى إندس، وإيلام، وبلاد ما بين النهرين. ولا يمكن تعليل هذا التشابه إلا أنه نتيجة الاختلاط الفعال فيما بين هذه المناطق فى نهاية عام ٤٠٠٠ ق. م

وأهم هذه المواد هى الأختام الخمسة الحاملة للعينة الاندسية الخاصة — (الكتابة والثور الأحدب)، التى عثر عليها فى أماكن مختلفة من إيلام وبلاد ما بين النهرين. ووجد منها رسمان اللذان فى «أور» و«كيس»، وقد نسبا تاتاً إلى ما قبل عصر السرجانى (Sargonoid)، أى عصر قبل ٢٨٠٠ عام ق. م. وقد عثر

على أختام تشابهها ضمن سبع طبقات أقدم تاريخياً فى موهنجودارو. فاذا فرض ٥٠٠ عام لهذه الطبقات السبعة من البقايا المختلفة فى موهنجودارو، على أنها كانت عرضة للسرعة فى الانحطاط والتجديد بسبب الفيضانات المتكررة، قد يمكن أن يقرر عهد حضارتها فى ما بين ٣٢٥٠ و ٢٧٥٠ ق. م.، مع سماحة لعهد أقدم لتاريخها ومصدرها. وبالاضافة إلى الأختام فهناك مواد أخرى وأشياء الزينة التى تقيم القرائن على وجود اتصال صميمى فيما بين هذه الحضارات. فالتى تستحق منها الملاحظة هى

(١) بعض كسرات من الزهريات المصنوعة من الحجارة الأوانية الهندية عثر عليها فى «العبيد»؛

(٢) تطرير رسم على كسوة الناسك فى تمثاله الذى أشرنا إليه سابقا والذى يعتقد أنه من صنع سوميرى (Sumerian)؛

(٣) رسوم قرنية على الأختام ثبت انتسابها إلى الاله «ايبانى» (Eabani) البطل؛

(٤) حبات السبحة من العقيق الأحمر المحفورة، التى تظهر نفس أسلوب صنع الحبات التى وجدت فى قوركيش، تنتمى إلى عصر ما قبل السرجانيـــة (Sargonoid)؛

(٥) طرار أو أشكال الجرات، والمواقف لوضع التقدمة، والمثقالات الحجرية؛ وغيرها.

وهلم جرا إن الأوانى الفخارية المصورة من موهنجودارو يحددها المستر أرنست ماكى (Mr Earnest Mackay) بمناسبة أسلوب ترتيبها إلى ما بعد عصر سوسا الأول (٤٢٥٠ ق. م) أو حتى إلى ما بعد عصر سوسا الثانى (٤٠٠٠ ق. م.) فى الفترة الواقعة ما بين ٣٢٥٠ و ٢٧٥٠ ق. م. وهى نفس الفترة التى لا بد أن ترد إليها الأوانى الفخارية المصورة من بلوچستان التى عثر عليها السير أوريل استائن.

وقد كشف المستر وولى (Mr Woolly) مؤخرا (عام ١٩٣٢) ختما هندياً آخر فى أور فى جذع قبر، ويحوله إلى السلالة الملكية الثانية ويؤرخه فى حوالى عام ٢٨٠٠ ق. م. ولكنه نفسه يشك فى تاريخه وأهميته نظراً لعثوره عليه بصورة شيء معزول فى محتويات قبر وأيضاً تحوم الشكوك بنفس الطريقة حول تاريخ الأختام الخمسة المشار إليها آنفا.

وإنما لعلى أثبت أساس من خصوص بعض الآثار التى كشفتها البعثة العراقية التابعة لمؤسسة شيكاغو الشرقية (Chicago Oriental Institute)، وذلك فى طبقة محدودة من الآثار القديمة من منطقة التل الأسمر (القديم: إشونه) فى الصحراء المجاورة لمدينة بغداد. فقد عثر فى سطح هذا المكان على أختام أسطوانية، وقدور، ولوحات حكومة ساراجان (Sarogon) من عكاد — (حوالى عام ٢٥٠٠ ق. م)، ينوه ختم منها بالوضاحة باسم «شدورال» (Shu-dur-ul)، وهو الملك الأخير من تلك السلالة. وكذلك عثر هنالك على آثار هى هندية الأصل على وجه التعيين، ولا شك أنها مستوردة من منطقة حوض إندس. فيمكن بهذا تحديد تاريخ حضارة إندس على وجه اليقين. وعثر على خاتم يمثل حيوانات كالفيل والكركدن — الأجنبيين لبابل — ويحمل طابع طريقة إندس فى إبراز أرجل وآذان الفيل وطية جلده، وفى إبراز أذن الكركدن على الوجه المخصوص. ويستعاد إلى الأذهان بهذه المناسبة ختم موهنجودارو الذى يعكس موكبا من الحيوانات وضع فيه الفيل والكركدن جنبا لجنب. وعلى هذا فلا يمكن أن يكون ثمة شك فى أن هذا الختم بالخصوص قد استورد من حوض إندس ووصل إلى إشنونه حوالى عام ٢٥٠٠ ق. م. ومن بين الأدوات الهندية الأخرى التى عثر عليها فى هذا المواقع، أختام مربعة بعقدة منقوشة فى ظهرها، وعليها نقش مركبات متراكزة لا توجد فى بلاد ماوراء النهرين ولكنها شائعة فى

موهنجودارو. وحبات السبحة المحفورة من العقيق الأحمر التى هى هندية الأصل بلا ريب، ضمت إلى السبحات العكادية (Akkadian) فى القلائد. ويوجد عظام كلوية الشكل، مشابهة لمثيلاتها، المرصعة فى الصدف، الموجودة فى موهنجودارو، والتى لا يوجد لها أثر ما فى بلاد ما بين النهرين.

التنقيبات التى أجريت فى هذه المنطقة فى بغداد قد كشفت النقاب عن آثار بقايا خمس عصور متعاقبة، وهى :

(١) عصر لارسا (Larsa)، ٢١٨٦ - ١٩٣١ ق م ؛

(٢) عصر ما بعد السارجانية (Post-Sarogonid) من العراة الحليين،

(٣ و ٤) عصر السارجانية المقتبسة من اللوحات والأختام المنقوشة،

(٥) العصر القديم الابتدائى الذى امتاز ببناء المنازل المصنوعة من الطوب المستوى المقعر المعاصر لقبور أور. فيستنبط من هذا أن آثار أور أقدم من آثار بغداد بألف عام على ما حدده المستر وولى، أى أنها ترجع إلى حوالى عام ٣٥٠٠ ق م فإن كان كذلك، سبقت بابل على مصر التى لا يتعدى عهد سلالاتها الابتدائية على ٣٠٠٠ عام ق م. وبهذه النظرية يرجع تاريخ حضارة إندس مزيداً إلى الوراء.

وأخيراً يجب ألا يعزب عن البال أن هذه الآثار الهندية التى عثر عليها فى مساكن اشنونه من عهــد سارجان (كما ذكر بالتعيين فى المنقوشات) لا تتشابه كثيرا بما عثر عليه فى موهنجودارو إلا الأختام الستة المذكورة. ولعل هذا التباين بينها يرد إلى أسباب جغرافية أو تاريخية ولا يستبعد أن الأختام التى عثر عليها فى بغداد ترجع إلى عصر أقدم من حضــارة إندس أو إلى عهد بعدها بمقارنة الأختام التى وجدت فى موهنجودارو. كما لا يستبعد أنها جاءت من مركز آخر لهذه الحضارة نفسها. وقد يكون الافتراض الأخير أقرب إلى الحقيقـة. ومنها

كان الأمر فان مظهر موهنجودارو لا يعتبر المظهر الوحيد أو أقدم المظاهر لحضارة إندس القديمة، كما سبق — (يقوله الدكتور فرانكمورت فيلد، مدير الحفريات العراقية، فى كتاب بعث به إلى صحيفة تايمس المؤرخ ٥ مارس سنة ١٩٣٢ م).

الواضعين

من هم واضعوا هذه الحضارة؟ فالبقايا البشرية التى عثر عليها فى موهنجودارو تكشف النقاب عن أربعة أقسام سلالية: قدماء الاستراليين (Proto-Australoid) وأصحاب بحر الروم (Mediterranian)، والفرعة المغولية من آلپ، وأصحاب آلپ.

فقدماء الأستراليين لا بد أن جاءوا من شبه القارة الهندية، وأهالى بحر الروم من السواحل الجنوبيـــة فى آسيا، وأما الألپيون والمغوليون فمن المناطق الشرقية والغربية من آسيا.

فسكان السند فى ذلك العصر المبكر كانوا خليطين من أجناس مختلفة. ودلالة الجماجم قد تأكدت بدلائل التماثيل المحفورة. إن تماثيل الرؤوس والأجسام التى اكتشفت فى موهنجودارو تشـــير إلى اختلاط أقسام متضادة من السلالات. ولكن هذه الدلالة لا بد أن تؤخذ مع الاحتياط. ذلك لأن الصانعين لم يكونوا علماء وصف الانسان، ولم يأخذوا على أنفسهم أن يقدموا نسخا مؤتمنة طبق الأصل، كشكل مضبوط للرؤوس. وعدد الجماجم التى عثر عليها، قليل بحيث لا يتيح لنا فرصة لاستنتاجات عامة سليمة عن العناصر الخليطة التى ألفت مواطنى موهنجوارو.

والسؤال الثانى الذى يمكن أن يعترض هو: هل كان سكان إندس درواديين؟ هذا السؤال هو على أساس النظرية السائدة بأن السميريين (Sumerians) الذين كانت لهم علاقات صميمـــة بهم، لعلهم كانوا ينتمون إلى نفس القسم السلالى كالدراويديين. ويقيم البرهان على وجود الدراويديين فى هذه الأماكن

الشمالية فى العصور الغابرة تتداول اللغة البراهوئية (Brahvi) فى بلوچستان. ولكن الصعوبة فى المسألة هى أنه لا يمكن تحديد نوع الدراويديين أو السميريين على وجه الدقة حيث أنهم بأنفسهم مخلوطو الأجناس. فانه لو قدر أن الدراويديين جاءوا إلى الهند من الغرب كغزاة فان أرومتهم السلالية الأصلية قد تغيرت بسبب التزاوج مع سكان الهند الأصليين أى الجنس القديم من الأستراليين ومرة أخرى، لو قدر أنهم من أهالى الهند فلا بد أنهم كانوا فى الأصل من قدماء الأستراليين، وإنهم اكتسبوا طابعهم الدراويدية خلال تطورات طبيعية وبفضل اختلاطهم بالعناصر الأجنبية. ومهما كان الأمر، وسواء قدم هؤلاء من الغرب إلى الشرق أم من الشرق إلى الغرب فان الجماجم القليلة التى فحصت فى موهنجودارو لا يمكن إثبات انتسابها إلى الدراويديين أو السوماريين.

الصلة بالحضارة الويدية

أما السؤال الأخير هو ما إذا كان أصحاب إندس وحضارتها معروفة لدى الهند فى سجلها المكتوب القديم المعروف بـ «ركويدا». وما إذا كانت حضارة إندس قد تقدمت الحضارة الويدية أم تبعتها، وهل كانت سلفا لها، أم تولدت منها.

وسنأتى فيما بعد دراسة الهند الركويدية. وإمعان النظر بالدقة فى دلائل ركويدا يؤدى إلى أن الاشارات الموجودة فيه عن غير الآريين وحضاراتهم ترجع إلى أهالى إندس وكما سيبين فيما بعد، فان قدم ركويدا نفسه قد ثبت بفضل ما وجد فى عاصمة الحيثيين (Hittite) التى ترجع إلى القرن الخامس عشر ق. م. من النقوش التى تصور الآلهة الركويدية الصريحة، الأمر الذى يثبت أن ركويدا نفسه لا بد، وأن نشأ فى عصر أقدم حتى قدرت حضارتها أن تهجر إلى بلاد ما بين النهرين. ونظر سديد إلى تطور اللغة السنسكريتية وأدبها قبل ظهور البوذية فى القرن السادس ق. م. لا يمكن أن يعين تاريخ ركويدا متأخرا

عن ٢٥٠٠ عام ق. م. وهو التاريخ الذى كان قد بلغ فيه رگويدا نتاجا متقنا. ونظراً إلى هذه الاحتمالات التاريخية، استنتج البروفيسور لانگدن (Langdon) أنه الأرجح بكثير أن الآريين فى الهند هم أقدم ممثلى السلالة الهندية - الألمانية (Indo-Germanic) ولقــد أكد فى نظريته هذه باعتقاده أن الكتابة البرهمية نفسها تقتبس من الكتابة الاندسية.

إن رگويدا يظهر دراية وافرة عن أقوام غير آرية أو السكان القدماء. فهو يسمى الغير الآريين «داسا» أو «داسيو» أو «اسورا» ويشير فى محل إلى أناس «پيساچا» و «راكشاسا» المرذولين الذين يفوهون فى المعارك بضوضاء وصرخات مخيفة. وكذلك يذكر أسماء الزعماء والأقوام الغير الآريين. ويبين بعض الخصائص الهامة للحضارة الغير الآرية التى تعيد إلى الأذهان وتمثل خصائص إندس. فلقد وصف الغير الآرى بأنه يتكلم بلهجة مستغربة، وأنه لا يتبع الطقوس الويدية، ولا يعبد الآلهة، ولا يتورع، ولا يضحى، ولا يتبع القوانين بل يتبع نظامـــه الخاص. وعلاوة على هذه الخصائص السلبية يذكر رگويدا خصوصية إيجابية فى الغير الآرى بأنه عابد الذكر

وبهذا الاعتبار، لا يوجد فى البيان الرگويدى عن حضارة الغير الآريين شيء يناقض تضمينه على حضارة إندس. وقد سبق لنا أن شاهدنا كيف خصصت ديانة سكان إندس لعبادة الذكر، ولغتهم التى لم تقرأ ولم تفهم إلى يومنا هذا، تستحق الوصف الذى وصفها به رگويدا بأنها تختلف اختلافا كليا عن السنسكريتية.

أما فيما يتعلق بالنواحى المادية من الحضارة الغير الآرية فيشير رگويدا إلى مدن وقلاع وسيعة رحيبة، ملآنة بالبقرات، محتوية على ١٠٠ عمود بنيت من الحجارة، ويشير إلى قلاع خريفية ليلجأ إليها فى حالة وقوع الفيضانات، ويشير إلى وجود ١٠٠ مدينة فى مملكة غير الآريين. ولقــد أشير إلى الاله الويدى

« إندرا » فى هـذه الماسة باسم « پوراندرا » أى « ناهب المدن »! ألا يلوح فى هذا كله إشارة ماسة لحضارة مدنية فى حوض إندس؟ ويعرف رگويدا أيضا شعبا تجارية يسميها « پانى »، ويشير إلى الشعوب الويدية — ترداسا ويادو — بأنهم قدموا من البحر.

ومرة أخرى، يحدد بعض جماجم موهنجودارو بأنها استرالية قديمة (Proto-Astroloid). ويشير رگويدا إلى هؤلاء السكان المخصوصين بـ « أناسا » وفطس الأنوف، ومن نسل مسود

وأكثر الحيوانات التى عرفها أهالى إندس، يعرفها رگويدا أيضا كالغنم، والتيوس، والكلاب، والثيران والحيوانات التى كان يصطادها معشر الرگويديين هى الغزالات والخنازير البرية، والجواميس، والأسود، والفيلة، وهذه معروفة لدى أهالى إندس أيضا وكان الخيل يربى فى الهند الرگويدى ولا يربى فى حوض إندس.

أما فى مسألة المعادن فيعرف رگويدا الحلى من الذهب وهذه الحلى احتوت على الحلقات، والقلائد، والأساور، والخلاخل، والأكاليل، والدرر للعنق، وقد شاهدنا كيف كانت أكثرية هذه الحلى تستعمل فى مدينة موهنجودارو.

وعلاوة على الذهب يعرف رگويدا معدنا آخر يسميه « أياس » (Ayas) الذى كان يستعمل فى صناعة الأوانى. وكان المعدن يدقق أيضا. ولعل رگويدا يقصد بأياس، النحاس. وفى الصحائف المتأخرة « اثروا ويدا » قد عرف الحديد وسمى « سياما - أياس » وهذا الاسم يميز النحاس باسم « لوهيتا (أى أحمر) أياس » ورگويدا يعرف أيضا الأدوات المصنوعة من الحجارة كـ « اسما چكرا » أى الحرارة الحجرية، أو « أدرى » أو « أسانى » يعنيان أحجار الرمى.

وعلاوة من ذلك، يعرف رگويدا بعض أصناف من الأسلحة التى لم تكن

معروفة فى حوض إندس، كالدرع المصنوع من صفاح معدنية رصت بعضها فى بعض وصفقت بالاتقان، والمغفرة المصنوعة من أياس أو من ذهب. وطريقة تزيين الشعر التى كان يتبعها رجال ونساء رگويدا تشابه بالعادة السائدة فى موهنجودارو. كان الشعر يمشط ويدهن. النساء يضفرنه. ويوجد ذكر فتاة تنسج شعرها فى أربع ضفائر. كان الرجال فى بعض الأحيان يرتبون شعرهم فى لفات. والرجال المعروفون بـ « واسشتا » يرجحون لفات شعرهم على جانب الأيمن، ويطلقون لحاهم.

وأشد طابع للحضارة الاندسية، أى حرفة القطن، هى أيضاً حرفة ثابتة فى الهند الرگويدية. رگويدا يسمى الحائك « وايا » ومنسجه « ويمى »، والوشيعة « تسارار »، والسداة « أوتو »، واللحمة « تنتو ».

لم تستورد جميع هذه الشهادات الرگويدية ليثبت أن الحضارة الرگويدية كانت سلفا للحضارة الاندسية أو مولودها. والذى يود أن يثبت أن حضارة رگويدا بمناسبة أرضية صورتها الجغرافية والتاريخية تظهر معرفة واسعة بعالم العنصر الآرى وبصفة حياته وثقافته التى فى بعض شأنها، كما ذكر فى رگويدا، تطابق بما تشير إليه البقايا المكشوفة فى موهنجودارو، فيمكن أن نعتبر فى موقف ما أن الغير الآريين المذكورين فى رگويدا هم الغير الآريين الذين أوجدوا الحضارة الاندسية. هذا الافتراض يوافق الرأى المقبول عاما عن رگويدا بأنه لا يتأخر عن ٢٥٠٠ عام ق. م. وهكذا كان معاصراً فى الواقع لهذا التاريخ القديم لاندس.

شعوب فترة ما قبل التاريخ

والآن لنا أن نربط مهما أمكن هذه الثقافات المتعاقبة التى نمت فى فترة ما قبل التاريخ بالسلالات التى أوجدوها، ونصل الآثار القديمة بالتاريخى الطبيعى

للأجناس البشرية. إن تعيين العناصر السلالية، ومصادرها، وعلاقاتها يتوقف على إمعان النظر في المميزات الطبيعية، واللغوية، والثقافية. ولا يمكن محاولة دراسية كهذه إلا في رسالة مخصوصة في الموضوع.

المواد الجمجمية

إن المواد الجمجمية لفترة ما قبل التاريخ لدراسة الأجناس في الهند ضئيلة. وهي لا توجد إلا في أماكن قليلة كـ «أديچانالور» وفي عدة أماكن أخرى في الهند الجنوبية. وفي سيالكوت، وفي بيانا على مقربة من آگره، وفي نال في بلوچستان، وفي موهنجودارو. ويعد هذا جميع دائرة المواد الجمجمية لفترة ما قبل التاريخ في الهند. والجماجم التي وجدت في هذه الأماكن هي من أنواع مختلفة — الاسترالي القديم، والتي تنتمي إلى بحر الروم، والآلبي، والمستطيل في الشكل والعريض فيه. فعلى هذا لم يكن سكان موهنجودارو متشابه النوع بل كانوا قوما مخلوطين.

وعلينا أن نقبل وجود أناس برؤوس مستطيلة وعريضتها بين قدماء سكان الهند كما تدل هذه الجماجم عليها.

ولقد لوحظ الفرق بين الجماجم البشرية في هذين النوعين في السلالة المشابهة للانسان التي ظهر منها آدم. وكان شكل الجماجم في السلف عريضا وتطور الشكل المستطيل فيما بعد، ولو كان لبعض الأشخاص رؤوسا مستطيلة من بداية الأمر.

الجنس الزنجي
(Negorito)

ويخمن أن أقدم الأجناس التي قطنت الهند كان من سلالة الجنس الزنجي الذي ما زال يوجد لهم أثر في أندمان، وربما في الأوغال الواقعة في أقصى جنوب

الهند فيما بين أقوام كاردا وأورالى الذين لهم قامات صغار وشعر مملفل . وحصة الجنس الزنجى في الحضارة هى اختراع القوس .

الجنس الاسترالياني القديم
(Proto-Astraloids)

قد اقتفى الجس المعروف بالاسترالياني القديم أثر الجنس الزنجى. وكان من ذى رأس مستطيل والمعتقد الآن أن أصله كان فى فلسطين وليس فى أستراليا، كما كان يفترض حتى الآن. ويجب أن يحسب هؤلاء الأستراليائيون القــدماء سكان الهند الأصليون نظرا لتركيز طابع سلالتهم فى الهـند مع أوصافها المميزة وخصوصيتها، ولو أنهم قـدموا إلى الهند بهجرتهم من العرب فى الزمن القديم. والنوع مشاهد فى حاله الأصلى فى قوم «ويدا» (Veddas). وهذا النوع هو المسؤول مبدئياً لفطساء الأنوف وقتومة الجلود فى الهند فى جميع السلالات إلا الطبقة السامية منها.

الجنس الملانيزى
(Mělanesian)

يمثل الملانيزى قسما مستقرا، مشتقا من اختلاط الجس الزنجى والجنس الأسترالياني القديم. ويشاهد هذا الجنس فى سلسلة الجبال التى تفصل آسـام، وبرما، وفى نيكوبار وكذلك على ساحل مليبار. ويعرف الجس بميزات ثقافيــة مخصوصة كتصريف جثث موتاهم بتركها مكشوفة، أو بالطقوس القوارىى. وهم ليسوا كجنس خاص أو على حدة بثقافتهم الخاصة.

الاشتراك الاسترالياني القديم فى الحضارة
﴿ لغــة «مندا» ﴾

يرجع الفضل إلى الاستراليـين القـدماء فى إيراد الثقـافـة الحجرية الأخيرة

والصناعة الفخارية فى الهند. ولكن تراثهم اللغوى أكثر رسوخا وأهمية. يعرف عنهم أنهم كانوا يلهجون بلغات أسترالية-آسيائية التى كانت موزعة على مساحة واسعة تمتد من پنجاب إلى نيوزيلندا ومن مدغشقر إلى جزيرة إيستر. فالنوع الهندى من هذه اللغات يعرف بلغة مندا التى لا بد أن تحسب فى هذه الحالات، اللغة القدمى التى نطقت بها فى الهند. والامعان فى المساحة اللغوية التى كان يلهج فيه مندا، يبدى الخطة التى تبعته الهجرة الأسترالية القديمة. ويمكن أن الهجرة كانت من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق. وبقيت مندا حية فى أدنى السلسلة من جبال همالايا فيما بين لادك وسكيم فى غرب أقاليم الهند الوسطى متجها الجنوب فى جبال گنجام وويزاكاپتم، ولكن لا تتعدى نهر گوداوری. ولا تبدى لغة مندا قيام صلة بلغات جنوب غربى آسيا ومناطق المحيط الهادى فحسب، بل أيضا باللغة السوميرية المتلاصقة. ويحسب من هذا أن الفروع المختلفة من أسرة لغات الأسترالية-الآسيائية نشأت فى مركز مشترك فى أواسط أو جنوب شرقى آسيا، ومن هناك اتجهت اتجاها شرقيا

أما الأقوام الذين يلهجون بلغة مندا فيدعون بأسمائهم الجنسية: مندا (Mundas)، وكولار (Kolarians) أو كول (Kols) وعددهم يتجاوز ستة ملائين، وهم: سونتال (عددهم حوالى ٢٣ لك)، وبيل (حوالى ١٨ لك)، وكروما (٩ لك)، ومندا (٦ لك) وسوارا (٥ لك)، وهو (٤ لك) وقبائل صغار أخرى مثل كوروا (من سيرگوجا وميرزاپور)، وجوبانگ (من ديكنال)، أو كوركو (من جبال پچهارى). والمنطقة الواسعة التى تشتمل سونتال پراگنا وچوتا ناگپور، مضيفا إليها بعض أجزاء الأقاليم الوسطى، وأوريسا، ومدراس، هى مركز الحضارة المنفردة المندائية أو الكولارية الابتدائية. وقد بقيت على مدى العصور بخصائصها المميزة كالمجتمع القروى الحر، والصيد والصيام بالجماعة، وغياب

نظام الطبقات، وعبادة كل قبيلة منها للأرواح المختصة بها المتقمصة فى الأشجار بطريق التضحية، والتزام شرائع مخصوصة من القانون، وفرض العقوبات على مرتكبى الجنح الثانوية بواسطة الغرامات التى تدفع بشكل مأدبة عشائرية، وفى حالة ارتكاب جنح خطيرة بإقصاء مرتكبيها عن حظيرة العشيرة والأعمال الزراعية وما شاكلها.

الجنس المغولى
(Mangolians)

يوجد آثار هـذا الجنس فى اللغات الدراويدية يعرف باسم مون خمر (Mon Khmer) يلهج بها سكان جبال خسى فى آسام، وجبال برما الفوقانى وبعض أجزاء برما التحتانى وشبه جزيرة ملايا وجزائر نكوبار. وقد تسربت هذه اللغة إلى الهند على يد الغزاة من الشرق، والمغوليين الذين جاء بعضهم من التبت عبر وادى برهمپترا والبعض الآخر من الصين عبر برما عن طريق أنهار ميكونگ وسالوين وإيراودى. ويلاحظ أن الغزوات الأخرى من الشرق قد عرفت الهند بلغتين من أسرة تبت ـ صينى، وهما:

(١) اللغة التبتية البرمية التى يفوه بها أهل تبت من ألمورا، وگرهوال، وأهالى دفلا، وأبورميرى ومشمى من شمال آسام، وگارو من تلال آسام العربية، وسكان كوكى صين من جبال ناگا، وبودو أو كوچ بهار، وناوكانگ، وكمروپا وگولپاره من آسام، وكاچين أسگفو من نهر إيراودى الفوقانية، وأصحاب برما.

(٢) اللغة السيامية ـ الصينية المنتشرة فى ولايات شان فى برما الشرقية.

وكان الغزوة المنغولية التى تعرضت لها الهند من النواحى الشرقية قد امتدت غربا إلى ما وراء المناطق التى انتشرت فيها لغتهم. فقد عثر على خصائص منغولية فى الجماجم والآثار الأخرى التى اكتشفت فى موهنجودارو.

اللغات القديمة

ويلاحظ أن سكان الهند القدماء هؤلاء قد قدموا إلى الهند لغاتها القديمة — لغات مندا، ومون ـ خمير، وأسترانيسيا، وتبت الصينية. وكما سيبين فيما يلى، دفع الدراويديون هذه اللغات إلى النواحى الجنوبية الشرقية، ولغات الهندية ـ الآرية بدورها حلت محلها.

بحر الروم والآرمينيين

وتعاقب أجناس بحر الروم، أجناس الأسترالى القديمة مهاجرين إلى الهند فى أمواج متتالية. فجاء فرع معه لغته المتلاصقة به مهاجراً بطريق وادى گنگا، ممتزجا بالاستراليين القدماء، واختلط بسكان القدماء من البلاد مؤثرا لغات استرالى ـ آسيائى، كما قد بين. وهم الذين عرفوا الملاحة والزراعة وبنايات الأحجار الخشنة. ثم تعاقب على ذلك هجرة أخرى من سكان بحر الروم بمعيــة ثقافة وحضارة متقدمــة أوجدوها فى بلاد ما بين النهرين بمشاركة الآرمينيين. وكان أجناس البحر الرومية مستطيلة الجماجم فى حين أن الآرمينيين من قسم الآلبى كانت جماجمهم عريضة. وموافقة لطبعهم، والآرمينيون والأناطوليون نشروا أنفسهم فى جميع أنحاء آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين واختلطوا بأجناس بحر الروم بنسب مختلفة، وأصبحوا العنصر الأكبر فى أهالى سومر. وعلى هذا فكان السومريون سلالة مخلوطة قد نشأت من أهالى بحر الروم — المستطيلة الرؤوس، ومن أهالى آرمينيا — العريضة الرؤوس.

وعلى ما يبدو فان هذه الشعوب، من أهم الشعوب فى فترة ما قبل التاريخ فى العالم، وهم أول موجدى الحضارة التى يرجح أنها ترعرت فى «الهلال الخصيب» تحت الجبال الشمالية فى بلاد ما بين النهرين ممتدة من الشام إلى الخليج الفارسى. وكما سبق لنا كانت هذه الحضارة فى ازدهارها فى نهاية الألف الرابع ق. م.

مدركة مستوى رويعاً من الراحة، والفن اللطيف، وحفظان الصحة فى حياة مدينية. وكانت لغتها دراويدية، واستعملت كتابة تصويرية كما كانت تستعمل فى بلاد ما بين النهرين فى فترة ما قبل التاريخ.

وقد يوجد أيضا احتماع الحس الآرميى بحنس البحر الرومى خصوصاً فى التامليين. ويجوز أنه كان هنالك اتصال بحرى مباشر بين المناطق الجنوبية من الهند وبين بلاد ما بين النهرين. ويؤيد وحود الاتصال البرى بين بلاد ما بين النهرين والحوض الاندسى، باكتشاف أشياء مشتركة الأنواع فى هاتين المنطقتين، وبوحود اللغة البراهوية فى بلوچستان. وتقيم اللغة البراهوية برهانا على وحود أقوام يتكلمون بألسنة دراويدية بصفتهم أقدم ساكنى موهنجودارو. وعلى الأغلب هم الذين قدموا بالثقافة إلى الهند.

الحس الآلى
(Alpine)

إن الناس من ذوى الرؤوس العريضة والأنوف الدقيقة الموجودين فى إقليم بنغال فى الشرق، وعلى الأخص فى المناطق الغربية فى الهند يمكن تفسير وجودهم فقط بنظرية غزوة من قوم آخر — القوم الآلى من جبال پامير (Pamir). ولا بد أن هذه الأجناس ذات الرؤوس العريضة — أجناس الآلى — اليوراشيائى، قد شقت طريقها إلى داخل حوض إندس، محلمين حضارة موهنجودارو، منشرين أنفسهم فى السواحل الغربية الهندية، ليصبحوا سلفا لـ «پربهو» و «مراثها» وغيرهما، مدخلين عنصرا عريض الرؤوس فى «براهوى». ثم انحدروا جنوبا عبر سهول ميسور، تاركين ساحل مليبار الذى احتفظ بهذا السبب بالحضارة القديمة الأصلية للسكان الناطقين بالدراويدية. وتكلموا بلغة هندية-أوروباوية، ولا تزال آثارها باقية فى اللغة الهندية الآرية الداردية

(Indo-Aryan Dardic) التي يلهج بها سكان چترال، وهم أيضا عريض الرؤوس وفيما بعد، أخذت الرؤوس العريضة هذه تتحول إلى صنع الرؤوس المدورة في وادي گنگا شرقا إلى بنغال.

الجنس الدراويدى
(Dravidians)

يتضح لنا مما سبق أن حضارة حوض إندس كانت قد اختلطت مع الناطقين باللغات الدراويدية من سلالة البحر الرومى مع امتزاج آرمينية وحضارة راقية مشتقة من الشرق الأوسط. ولعل أنسب وصف لهذه الحضارة القديمة من بحر الروم وآرمينيا أنها هندوسية، قامت قبل ظهور الويدية والتى تضمنت بعض الخصائص الهندوسية المتأخرة كما بينت. وكما سبق لنا كانت هذه الحضارة نشيطة حتى أثرت الحضارة الويدية. ويتحدث رگويدا عن قوتها فى المدن والقصور، والثروة كما يتحدث عن نسائها التى اغتسلن بالحليب. وكان فى وسع العناصر الغير الآرية «اللا آرية» التى وجدت فى عصر رگويدا أن تشير فقط إلى الأجناس الاسترالية القديمة، فاذاً كانت الشعوب كـ «بيل» (Bhils) أو «شودرا» (Shodras) محصرة فى الجبال والأوعار رغم هجرة سكان بحر الروم وآلب، أو كانوا محتلين وادى إندس بعد تأخر حضارة ما قبل الويدية. ومرة أخرى، الحكاية الويدية عن التصادم بين «واسشتا» و «وشوامترا» هى حكاية التصادم بين الثقافتين اللتين يرى امتزاجهما فى أن «شتريا» أصبح «برهمنا». ووردت فى الأحاديث الأخيرة إشارات إلى قوم «ريشى» من غير الآريين. وأخيراً، فان الكتابة البراهمة للحضارة الويدية المتأخرة يوجد أثرها فى الكتابة الصورية لحوض إندس. ومن زمن بعيد أى منذ عام ١٨٦٧ م. أبدى المستر تامس (Mr Thoms) شكوكه فى أن الآريين لم يخترعوا حروفا هجائية خاصة

بهم خلال تنقلاتهم، بل إنهم اعتمدوا على البلاد التى استوطنوها لتزودهم رسم خط حتى يمكنهم ليحولوا كلامهم إلى الكتابة. لم تنل هذه النظرية بتأييد لمدة طويلة من الزمن، ونسبت الكتابة البراهمية إلى مصادر سامية واعتبرت على أنها استوردت من فينيقيا (Phoenicia) فى ألف سنة ق. م. وكان لبروفيسور لانكدن أن يثبت بعد مرور ستين سنة أو أزيد أن الحروف البراهمية قد استمدت من علامات حوض إندس، وهى الرموز التى استخدمها القدماء الذين سكنوا حوض إندس قبل الآريين. وهكذا — كما يشير هو — السنسكريتيون الآريون قد قدموا قيما من لغتهم الخاصة إلى هذه الحروف. وبمعنى آخر إنهم كانوا على إلمام بمعانيها الرمزية، فترجموها إلى السنسكريتية، واستمدوا قيمها الهجائية من الألفاظ السنسكريتية.

يتضح من كل هذا أن الذين كانوا يتكلمون بالدراويدية كانوا هم المقيمين الأخيرين قبل قدوم الهنديين-الأوروباويين إليها. وإنهم جاءوها من الناحية الشمالية الغربية حيث خلفوا آثار لغتهم بين البراهويين (الذين هم نفسهم يعتبرون آثار موهنجودارو من مخلفات أجدادهم)، واستقدموا معهم ثقافة بلاد ما بين النهرين، وآسيا الصغرى أو منطقة شرقى البحر الرومى. ويلاحظ أن الأسماء الدراويدية للأماكن قد عثر عليها أحيانا فى بلاد ما بين النهرين وإيران، وكما أن لغة قديمة متداولة، وهى ميتانى (حاريان) تظهر تشابهات عظيمة مع اللغة الدراويدية الحديثة فى الهند. فيظهر أن الهند قبل أن وطأتها أقدام الآريين أو الهنديين-الأوروباويين فى الألف الثانى ق. م. لم تك مجموعة مضطربة من قبائل الاستراليين كما كان يعتقد لزمن طويل، بل إنها كانت تتمتع بحضارة متقاربة لحضارة ما بين النهرين فى وديان إندس، ولربما فى وديان الكنج أيضا. وكانت تلك الحضارة على اتصال بهذه الحضارة.

آثار هجرتهم من الشمال إلى الجنوب

ارتد الدراويديون أمام الآريين بعد أن خلفوا وراءهم فى الشمال من القرائن ما يدل على قوتهم، وعلى أن هجرتهم هذه كانت من الشمال إلى الجنوب حيث وجدوا مقرا نهائيا لهم. وتتوافر الدراويدية على السواء فى السنسكريتية الويدية والكلاسيكية وفى البراكرتية وكذلك فى اللغات الحديثة المحلية المتداولة فى الهند الشمالية. وقد اكتشف اللغويون أن اللغة الهندية-الأوروباوية لدى إدخالها إلى الهند قد تعرضت لتغيرات ما كان لها أن تأتى من أى مورد آخر غير مصدر الدراويدية. أما هذه التغيرات التى طرأت تتجلى فى وجود سلسلة ثانوية من الحروف المسننة فى لغة رگويدا، وهى الحروف التى تميزها عن لغة «أوستا» أو غيرها من سائر اللغات فى الأسرة الهندية-الأوروباوية. والقرائن الأخرى التى تقيم الدليل على أن هجرة الدراويديين كانت من الشمال إلى الجنوب، تتوفر فى أماكن معزولة أخرى احتفظت باللغة الدراويدية وثقافتها والتى خلفوها وراءهم فى الشمال بين أقاربهم مثل «مال» و «سوريا پهارى» فى حال راج محل، و «ادراؤن» فى چوتانا گپور (وعددهم حوالى ٨ لك)، و «گوند» (حوالى ٣٠ لك)، و «كاند» فى أوريسه والولايات المتفرعة عنها.

إن الشعوب المتكلمة بالدراويدية تتألف من عناصر أو أجناس ثلاث، وهى:

(١) مستطيلة الرؤوس وعريضة الأنوف أو مزيج الويدى والاسترالیائى

(٢) مستطيلة الرؤوس ودقيقة الأنوف أو عنصر البحر الرومى

(٣) عريضة الرؤوس ودقيقة الأنوف أو العنصر الآلبى

وعلى وجه العموم، كان سكان منطقة الدكن من أصحاب الرؤوس العريضة فى حين أن سكان المنطقة الواقعة إلى الناحية الجنوبية منها بما فى ذلك المنطقتين الساحليتين هم من ذوى الرؤوس المستطيلة. وإن هناك أيضا صلة متزايدة ما

بين أصحاب الرؤوس العريضة وأصحاب الأنوف الدقيقة، وما بين أصحاب الأنوف الدقيقة وأصحاب اللغة السنسكريتية كما هو الحال فى اللغات الكنارية، والملايالامية والمراتية والتيليغوئية، فى حين أن التاملية — وهى أبعد هذه عن السنسكريتية — يتكلم بها أصحاب الرؤوس المستطيلة والأنوف الدقيقة.

وينتشر العنصر الآلبى من أصحاب الرؤوس العريضة على السواحل الغربية ما بين كجرات وكورك، وفى المنطقة الواقعة ما بين بارس وبهار، وبصورة ملحوظة فى بنغال حيث تقدم الصلة بينهم وبين أنوف عريضة خصوصاً فى الوسط، وعند مصب الأنهار، وبصورة أقل فى الناحيتين الشمالية والشرقية. وعلى ذلك توجد سلسلة متصلة الأجناس من بومباى إلى بنغال. وعلينا أن نتطلع إلى الغرب، لمعرفة أصل البنغاليين، وليس إلى الشرق أو إلى المصادر المغولية. ولا توجد فى البنغاليين بعض أهم خصائص المغول ومميزاتهم كخلو أجسادهم من الشعر —[الدكتور بى. ايس. گوها فى خطبته الرئيسية التى ألقاها فى القسم التاريخ الطبيعى للاجناس البشرية فى مؤتمر العلوم الهندية (Indian Science Congress) سنة ١٩٢٨ م].

الأسس الجغرافية والاجتماعية

إن تاريخ الهند الحقيقي يبدأ بقدوم الآريين إلى الهند. ويجب بادئ ذي بدء أن تدرس الأسس الطبيعية لهذا التاريخ في الظروف الجغرافية التي أثرت على مجراه خلال العصور. وتحضرنا بهذه المناسبة الكلمات المأثورة الصادرة عن المستر ريچرد هاكلويت (Richard Hakluyt). إن الجغرافية والتاريخ هما بمثابة الشمس والقمر، أي أنهما بمثابة عين التاريخ اليمنى واليسرى.

إن أهم خصائص الهند الجغرافية التي أثرت في تاريخها هي: ١ - عزلتها ٢ - ومواصلتها ٣ - وضخامتها ٤ - وتنوعها ٥ - ومعدنها.

- ١ - عزلتها

قلما يوجد جزء من قارة تم فصله بالوضوح وخصته الطبيعة بعزلة إقليم بذاته. إن الهند وحدة جغرافية لا نزاع فيها، محفوفة بالجبال في الشمال ومحاطة بالبحر في الجنوب، وإنها عزلت في الحقيقة عن بقية العالم بحدود صارمة معروفة. إن جبال همالايا تقدم سورا مضاعفا يمتد بدون تقطع من الشرق إلى الغرب لمسافة ١٦٠٠ ميل ويمتد عرضها ٢٥٠ ميل معدلا، طويلة هذه المسافة. ومن جهة تبت من السور الشمالي تنهض الأنهر الثلاثة، هي إندس وستلج وتسانپو (يسمى «براهما پوترا» في جزئه الهندي)، ومن جهة الهند من السور الجنوبي ينهض گنگا وفروعه الشمالية. ويلتقي السد الهمالياني على جانبه الشرقي بحواجز في صورة جبال پتكوئي، وناگا، ولوشائي المكسوة بالأدغال التي تحول بين وادي إيراودي في برما والسهول الهندية، وتعرقل الطريق المستقيم ما بين الصين والهند. وفي نهايته الشمالية الغربية تقوم مقام السد زاوية من الذروة الأعلى المتألفة من جبل

كراكورم بقمتها الثانوية فى الارتفاع فى العالم، المعروف بجبل «كودوين أوستن» (Mount Godwin Austin)، وقمة هندوكش (Hindu Kush) مكتنفة بين جوانحها وادى ليه، وكلكيت، وچترال التى تشكل أقصى المراكز العسكرية فى الشمال للامبراطورية الهندية. وإلى ما وراء هندوكش أو فى جنوبها يقع «سفيد كوه»، وقمات جبل سليمان التى تحول بين الهند وأفغانستان وجبال كرتار التى تفصلها عن بلوچستان.

وفى الجنوب أقام الأوقيانوس فى الأيام الغابرة حاجزاً مهيبا معزلا، باستثناء التبادل التجارى السلمى القليل الذى كان يمكن بالمراكب الشراعية، وباستثناء الرحلات البحرية المتلحلحة فى تلك الأيام فى السواحل. وكان الأوقيانوس يوفر للهند الوقاية الكافية ضد أى غزو بحرى إلى أن وجد الأوربيون (حول قارة أفريقية) طريق رأس الرجاء الصالح وإن قدوم ثلاث سفن لـ «واسكو دا كاما» على ساحل كاليكوت عام ١٤٩٨ الميلادية، جعل البلاد عرضة لقدوم المقتحمين المغامرين بطريق البحر — طريق غزو سلكته الدول الغربية الأربع فيما بعد باستمرار ونجاح: البرتغال، وهولندا، وفرنسا وبريطانيا.

وفن الملاحة قد غير شكل الأوقيانوس، فجعله طريقا عمومية للاختلاط والغزو حتى انتقلت قيادة البلاد إلى السيادة فى البحر. وقد اكتسبت الآن المدن الساحلية: بومباى، وكراچى، ومدراس، وكلكتا، وكولمبو، أهمية عسكرية فى الدفاع عن الهند. وقد أصبحت كولمبو التى تلتقى عندها عدة طرق بحرية: من بحر الروم، ومن رأس الرجاء الصالح، ومن إستراليا، ومن سنغافوره، ومن الشرق الأقصى، مركزاً عسكريا هاما فى الأوقيانوس الهندى. ويلاحظ أن الحواجز الجبالية الغربية على السواحل الغربية، وندرة الموانى الصالحة على السواحل الشرقية، وقلة الغور فى المياه الساحلية، وصعوبة المراس بسبب الأمواج الهائجة،

كل هذه ترتب عقبات مستمرة طبيعية فى المواصلات بطريق البحر مع البلاد الخارجية. وأيضاً طبيعة السواحل الهندية لا تناسب لنموها كدولة ذات قوة بحرية.

وحيث أن قسما عظيما من البلاد الهندية يمتد إلى الداخل، فمعظم سكانها أصبحوا مربوطين بالبر. لا توجد هنالك تعريس، ولا تلك الخلجان العميقة والهوى، أو مصبات الأنهار التى تفتح بها المساحات الداخلية كما توجد فى نارووى (Norway) أو الجزائر البريطانية، التى لا يبعد أى جزء منها من البحر، والبعض من الخلجان والهوى التى توجد فى الهند لا تصلح للموانى. والميناء الطبيعى الوحيد فى الهند هو بومباى. وميانى مدراس وكولمبو هما اصطناعيين، وأما كلكتا فهى على مصب نهر. وبالنظر إلى هذه العقبات الطبيعية فان الملاحة الهندية ونشاطها البحرى لم يلعبا دوراً هاما فى التاريخ الهندى.

وفى حين أن الهند تماما تقف معزلة عن العالم فان بعض أجزاءها بدورها معزولة عن بعض. وسلسلة جبال وندیا (Vindia) بأوعالها العويصة الممتعة قد قدمت فى كل الأزمنة حاجزاً فاصلا بين شمالى الهند وجنوبها وقد وقف استعمار الآريين أمام هذا الحاجز لمدة طويلة بموجب النصوص السنسكريتية القديمة. وإلى يومنا هذا يظهر فى هذين الجزئين من الهند تباين عجيب فى ميادين السلالة، واللغة، والعادات الاجتماعية. فعلى طريق المثال ذكرت فى كتاب من بوذيانا فى عام ٥٠٠ ق.م. عادة اجتماعية عامة التى تفرق بين الناحيتين الجنوبية والشمالية، وهى العادة المتبعة حتى الآن فى المناطق الجنوبية من تزاوج شخص مع ابنة خاله، وهى عادة يستهجنها الهندوس فى المناطق الشمالية. والواقع أن المناطق الجنوبية من الهند كان لها تاريخ منفصل، مع قيام مواقف قليلة من الاتصال بتاريخ المناطق الشمالية من الهند. ولقد قل الملوك الذين أحاطت سيطرتهم على الشقين الجنوبى والشمالى، كحكومة چندرگپتا موريا، أو أشوكا،

أو جلال الدين أكبر، أو أورنگ‌زيب. والعزلة النسبية فى الجنوب هى المسؤلة عن اعفائها من غزوات المسلمين التى تعرضت إليه الأجزاء الشمالية من البلاد لعدة قرون.

وسلسلة جبال وندبا بما فيها من جبال ستپورا والتى تضم وديان نهرى نرمدا وتاپتى، تمتد من خليج كامى (Gulf of Cambay) إلى راج محل فى بنغال. وفى الجهة الوسطى فى الهند تتحد جبال وندبا وستپورا لتؤلف المرتفعات فى الأقاليم المتوسطة (Central Provinces). وفى الناحية الشرقية حتى الجبال الشرقية، والمنطقة الواقعة بين نهرى گوداورى ومهاندى الممتدة إلى إتجاه شمالى فى وادى نهر سون، هى أيضا معروفة بالجبال وبالأوعال ذات الحمى موطن السكان الأصليين العاريين من صبغة حضارية، وفى بقاع من الأرض كـ «سونتل پرگنا» وفى جبال وأوعال الهند الوسطى، أو فى مرتفعات نيلگيرى، كما قد ذكر.

وحتى فى زمان الكتاب الويدى المسمى «ايتريا براهمانا» (الذى لا يتأخر تاريخه عن ٢٠٠٠ ق.م)، قد ذكر أن الأجناس الغير الآرية: اندهرا، وپوراندهرا، وسارا، وپوليندا، ومريتبا، قد سكنوا فى ضواحى المدنية الآرية فى أوعال وندبا فى الناحية الشرقية وفى الجنوب الأبعد. قد عزلت جبال امامولاى، وپالى، وكارديم مملكة كيراله التى انعزلت عنها فى العصور الحديثة ولايتا كوچين وتراونكور. ومن آثار هذه العزلة فيهم، يوجد لديهم عادات اجتماعية غريبة كالمرأة تتزوج رجالا متعددين فى آن واحد، أو التراث الأموى (بموجبه إذا مات رجل ورثه ابن أخته)، هذه عادات غير معروفة فى النظام الاجتماعى الآرى وبقية البلاد الهندية.

ومثال عزلة آخر ملفت للنظر هو العزلة فى المنطقتين المزدحمتين، فى جنوب الهند، منطقة سهول كرناتك الممتدة من مدراس إلى تانجور، ومنطقة سواحل

مليبار ما بين كوچين وكاليكوت. وعزلة المنطقتين المعمورتين فى ما بينهما نقطة تقطع بالثغرة المسمى ثغرة كوئمباتور أو پالگات، وهى التى تتيح لأسواق كرناتك منفذا ضروريا إلى المرافئ. والموانى الطبيعية على سواحل مليبار. إن الأمواج على سواحل كورومندل مضافا إليها الحواجز التى تتألف من الجبال الغربية وراء ساحل مليبار لهى السبب فى العزلة النسبية فى حوض الهند تعيثه منها ثغرة كوئمباتور وتلتحم كوئمباتور التى أصبحت تتمتع بأهمية كبرى بسببها.

المواصلات

إن الهند رغما عن كل هذه العزلة الطبيعية لتعكس صورة اجتماعية معقدة غريبة مخلوطة بأجناس مختلفة، ولا شك أنها وليدة المواصلات بالعالم الخارجى، والهجرات، والغزوات الأجنبية فهكذا يناقض تاريخ الهند جغرافيتها. وحركات عالمية فى الفكر والشعوب قد تعدت على عزلتها خلال العصور الغابرة وأدخلت فى حضارتها عناصر سلالات وثقافات مختلفة، يمكن تقسيمها إلى:

(١) الأجناس ما قبل الدراويديين (Pre-Dravidian)؛

(٢) الدراويديين (Dravidian)؛

(٣) الآريين (Aryan)؛

(٤) الفرس (Iranian)؛

(٥) اليونانيين (Greeks)؛

(٦) الروميين (Roman)؛

(٧) السيتيين (Seythian)؛

(٨) الألمانيين (Huns)؛

(٩) المسلمين؛

(١٠) الأوروبيين (European)؛

السؤال هو: كيف أمكن جريان النفوذ الأجنبى؟ وما هى الطرق الثابتة التى ساعدته فى الدخول إلى الهند؟

إن الحدود الشمالية الشرقيــة من اللاد لا تحتوى إلا على عدد قليل من الثغرات، وهى تسمح بحركات واسعة النطاق. والممرات الثلاثة فى ما بين سيكيم وتبت ــ جيلپ، وناتو، ودونكيــا ــ رفيعة ممتــعة تسمح بالتنقل القليل فقط. وفى الشرق تقــدم طريق برهمپترا ممرا من تبت، ومن الصين بطريق ميكانك، وسالوين، وإيراودى، ولـكن الهجرات على نطاق واسع من هذه الطريق، تمنعها الأدغال الـكثيفــة وسكانها الوحوش. هكذا قد تركت وقاية الهـــد فى هذه المنقطة فى يد الطبيعة.

والحصن الشمالى بأكمله حوالى ١٥٠٠ ميل، فى الحقيقة لا يسمح بالاختراق. وهناك بعض ممرات تمتد من جبال پامير على طريق گلگيت، ومن تبت على طريق ليه، ومضيق ستلج إلى الهند. وبالممرات الثلاثة المعروفة بممر مستاغ (أى الجبل المثلج)، وممر كاراكورم (أى الجبل الأسود)، وممر چانگى هيمو التى يزيد ارتفاع كل منها على ١٨٫٠٠٠ قدم، قد يسرت حركة تنقل محدودة ما بين پنجاب وتركستان الشرقية من ناحية، وتبت من ناحية أخرى. ولـكن هذه الممرات صالحة لمرور التجــار لا للهجرات والغزوات. ولم يعتبرها صالحــة الحجاج البوذيون القادمون من الصين فى القرون الوسطى كـ «يوان چوانـگ» الذى توجه فى بداية سفره غربا متخذاً الطرق الصحراوية الواقعة فى شمال تبت إلى أن وصل إلى أوكسس، ثم انحرف باتجاه جنوبى عبر ممر هندوكش.

وفى المناطق الجنوبية، كانت الهند دائما عرضة للنفوذ الأجنبى بطريق البحر، وللتبادل التجارى السلمى مع مصر وبابل فى بداية الأمر ومع الامبراطوريــة الرومانية بعد ذلك. وقــد عثر فى مدافن مصر على المنتوجات الهنــدية كالنيلج

(للصباغة)، وخشب أشجار التمر الهندى، والثوب الناعم (موسلين) لاستعماله فى لف الموميات. ومن بين الغنائم التى حملها فرعون معه فى سفينته إلى مصر كان العاج، والذهب، والأحجار الكريمة، وخشب الصندل، والقردة وجميعها من الهند. ويجد بعض العلماء ثبوت التجارة الهندية فى التوراة، وذلك بسبب ما يقع من الذكر فيها عن أشياء كانت الهند فقط تقدر أن تصدرها فى ذلك الزمان، كالأحجار الكريمة، والذهب، والعاج، وخشب الأبنوس، والطواويس، والتوابل — كانت هذه الأشياء جزءاً من البضائع التى حملها سفن سليمان. وقد وجد خشب الساج الهندى فى خرائب أور والكلمة البابلية للثوب الناعم هى «سندو».

ويتحدث الكتاب الهندى «بويرو - جاتاكا» المؤلف فى حوالى ٥٠٠ ق. م. فى لغة پالى قطعاً عن التجار الهنود الذين كانوا يحملون الطواويس إلى بابل. والمنتجات الهندية الخاصة كالأرز، والطواويس، وخشب الصندل، كانت معروفة لدى اليونانيين بأسمائها الهندية التاملية فقط. ونظراً لقطع المواصلات بين بابل والهند بعد عام ٤٨٠ ق. م فلا بد أن هذه المنتوجات قد استوردت فى بابل قبل هذه الفترة بكثير حتى وصلت إلى يونان حوالى عام ٤٦٠ ق. م. وأصبحت مألوفة فى اثينا (Athens) فى عهد سوفوكليس الذى تحدث عنها (٤٩٥ — ٤٠٦ ق. م.).

وبموجب المؤلفات الهندية القديمة كانت سوپاراكا - سوپارا، وبهاروكاچاچها - بهروچ أهم مراكز التجارة القديمة على سواحل بومباى. وكان للتبادل التجارى الهندى مع الروم الذى تطور على أوسع نطاق بين عهدى أغسطس ونيرو، قاعدتان رئيسيتان فى موزيريس (كرانگانور) على ساحل مليبار، وفى كويرى پدانام (پوهارا) على ساحل كورومندل، وكانت تشحن منهما البضائع الهندية التى قدرت ثمينة فى الروم، كالتوابل والعطور، والحرير، والثوب الناعم والقطن،

واللؤلؤ والأحجار الكريمة. وكان مركز تجارة اللؤلؤ مدينـة باديا القديمة، عاصمة كوركاى (تيى ويلى) وهى الآن مدفونة تحت الرمال. وزاد الاقبال على الزبرجد من الأحجار الكريمة، وكان يستخرج من مناجم منطقتى كوئمباتور وسالم. والنقود الرومانية توجد أغلبها فى كوئمباتور ومادورا. وتتحدث المؤلفات التاملية القديمة عن قوم « ياوانا » (القوى) و « مليچها » (الأبكم) بأنهم كانوا فى خدمة ملوك تاميل. والكلمة « ياوانا » بنفسها قد دخلت فى السنسكريتية بسبب اتصال هندى مع اليونانيين. وإلى هذا الاتصال أيضا ترد بقايا مستعمرتين من اليهود والمسيحيين على ساحل مليبار.

وقد بدأت تجارة أهل اليمن مع الهند على أعقاب التجارة بين الهند وبين مصر، وبابل، والروم وبعد نمو الاسلام فى ٦٢٢ الميلادية عمت سيطرة العرب على جميع الموانى الواقعة على بحر العرب وسواحل أفريقيا وعلى الطريق البحرية المودية من الخليج الفارسى إلى الهند والصين.

إن اتصالات الهند مع العرب حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى اقتصرت على التجارة الساحلية التى كانت تجرى على جوانب الهند العربية. وبعد ذلك خضعت البحار لعلوم الملاحة ومهدت طريق التسرب فى الهند للأوربيين فى حين أن غزاة الهند وفاتحيها كانوا قد تسللوا إليها سابقا بواسطة الطرق البرية الواقعة على الحدود الشمالية العربية من البلاد. والحدود الشمالية العربية رغم المنطقة الجبلية الملتفة حولها يعتبر أكثر قابلية فى الاحتراق فى جميع الامبراطورية الهندية، وهى تحتاج إلى استعدادات مستمرة وعالية لتامين الدفاع عنها. والذى يضاعف عموم أمنها هو حدودها الطويلة الممتدة التى تخترق المناطق القبائليـة إلى أفغانستان.

ولشعور أهميـة حدود الهند الشمالية الغربية بأكملها لا بد أن نتطلع إلى ما

وراء الحدود المباشرة للهند ونقوم بدراسة هيئة النجد الايرانى الذى يشمل على الممالك الثلاثة المتجاورة : أفغانستان، بلوچستان، وفارس. وهـذا النجد يرتفع إلى المرتفعات الممتنعة فى جبال پامير فى الناحية الشمالية الشرقية، وفى جبال آرمينيا فى الناحية الشمالية الغربية. ولكنه من السهل بلوغه بالنواحى الأخرى فى جهة الخليج الفارسى، وبحر العرب، والهنـد، وتركستان أو توران فى الشمال. فتأمين الدفاع عن الهند يحتاج إلى السيطرة على الخليج الفارسى وبحر العرب، كما يقتضى انعدام قواعد القوات الأجنبية على النجد الايرانى فى الجهة الجنوبية والشرقيـة.

إن النفاذ إلى الهنـد سهل عن طريق أفغانستان بواسطة نهر كابول، وعن طريق سيستان. وإن ممر هـندوكش الذى يفصل حوض نهر أوكسس عن حوض نهر إندس سهل الوصول إليـه من كلتا الناحيتين ويمهد عـدة طرق إلى الهـند سالكة وديان الأنهار، أشهرها وأكثر استعمالا هى طريق «خيبر». وهذه الطريق تمتد من كابول فتمر على وادى نهر كابول مارة بمنطقـة «سو» عبر ممر «كورم» وفيما بعد فى نهر إندس. ووادى نهر توچى يبتدى من غربة ويمتـد إلى داخل الهـند وتفيض منه نهر توچى التى ترتفع إلى سفوح جبال وزيرستان لتصب فى نهر كورم. ويقع ممر گومال بين أفغانستان وديرا اسمعيل خان. وعلى بعد منه، حيث تنخفض الجبال الأفغانية فى الجهة الغربية، تقع طريق أخرى حول أطرافها فوق النجد المفتوح ما بين هرات وقندهار، وهى لا تبعد كثيرا من سيستان، وتسير من قندهار باتجاه جنوبى شرقى مارة بمنطقة صخرية حتى تبلغ الأرض الواطية فى إندس. وهذه الطريق تسمى طريق بولان عندما تتعدى المضيق الأخير وتصل إلى الهند. والطريق الأخيرة فى المواصلات التى تربط إيران بالهند، تمر بمنطقـة مركان الصعبة المرور سالكة ساحل بلوچستان. واكتسبت هـذه الطريق شهرة فى التاريخ لأن الاسكندر المقدنى قد اختارها (لعله كان طبقا للخطة السابقة التى سلكها الفاتحان من قبل: سميزاميس وسايرس)، وكانت نتائجه منكبة لجيوشه

فى سفر رجوعهم من الهند عام ٣٢٥ ق. م. وقد كثرت استعمال هذه الطريق على يد تجـار العرب. وهناك أيضاً اتصال جانبى بين الطريقين المهمين: خيـبر وبولان، سالكاً عبر سلسلة من الوديان ما بين قندهار وكابول مارة بغزنة. وقد اشتهرت هـــذه الطريق بالزحف الاسكندرى فى غرواته الحترية (Bactrian) والهندية، وفى العصور الأخيرة بزحف الجنرال روبرتس من كابول لنجدة قندهار خلال الحرب الأفغانية عام ١٨٨٢. وهناك عدد من الممرات ما بين طريق كابول وقندهار التى تؤدى إلى المنطقة الجبلية على الحدود الهندية.

وهكذا جميع هـذه المواقع، مفتاح لجزء عظيم من تاريخ الهــــد القديمة والحديثة. إن الثغرات الموجودة فى حواجز الهند الجبلية الواقعة فى الشمال الغربى قـد استخدمت — كما ذكرناه آنفا — للمواصلات السلمية والغزوات العنيفة ولحركات وهجرات سلاليـة واسعة. وجاء من هذه الطرق بعض شعوب ما قبل التاريخ، والآريون الذين تولد منهم التاريخ الهـــــدى. وفى العصور التاريخية جاء الغزاة الأجانب من أمثال سائرس وداريس، والإسكندر وسيليوكس، وأقوام ديمتريو، وسليثيا، وبارثيا، وكوشان الذين دخلوا الهند فى عهدهم فى المواصلات التجارية النشيطة مع الامبراطورية الرومانية بطريق البر. وجاء المسلمون خلال القرون الوسطى. والاستثناء الوحيد فى مسئلة الأصل المهم الأعظم فى تاريخ الهند هو الأوربيون الذين دخلوا الهند من ناحيتها الجنوبية بطريق البحر.

وليست هنالك مغالاة فى أهمية صحراء راجپوتانا من الناحيـة الاستراتيجية أو العسكرية فى الدفاع عن الهنــــد خلال العصور الغابرة. هذا القفر اليابس من صحراء كچه (Rann of Cutch) الممتد فى جهـة الشمال الشرقى لمسـافة حوالى ٤٠٠ ميل وعرض ١٥٠ ميل، بمعية سلسلة جبال اراولى من ورائه كحصن آخر، يشكل خطاً ثانياً من التحصينات ضد غارات عـدائية من طرق بولان ومكران

إذا عبر نهر خيبر ذات مرة. فالطريق ممهدة إلى دهلى التى يمكن أن توصف بـ «النقطة المركزية التاريخية لجميع الهند». ومن موقف الحد الشمالى من جبال أراوالى حيث تصل القوات العارية من شمال الغرب إلى المياه الصالحة للملاحة، تسيطر دهلى على المدخل الذى يمهد الطريق من سهول پنجاب إلى الداخل — إلى قلب الهند الذى يحتوى على سهول نهرى جمنا وگنگا. لم يصل الفاتح الفارسى داريس إلى هذا المدخل فى القرن السادس ق. م. ولا الاسكندر الذى توقف تقدمه عند جبال بياس (Beas). وقد بقى للمسلمين وحدهم أن يعبروا هذا المدخل ويتمكنوا بذلك من تثبت أقدامهم بصورة دائمة فى الهند. ولكنهم استغرقت لهم حوالى خمس قرون — من يوم فتح العرب السند فى ٧١٢ م. إلى أن ظهر السلطان الأول فى دلهى فى ١١٩٣ م. — ليوسعوا نطاق حكمهم من أطراف الهند إلى قلبها بمدخل دلهى وفى خلال هذه المدة، كان سكان راجپوتانا فى مأمن بحرية بلادهم الطبيعية، وقد أوقفوا المسلمين الغزاة من جهة الشمال الغربى على الطريق المؤدية إلى دلهى، وقاموا أمام الجناح الجنوبى من الجيش المهاجم. وبعد فتح دهلى أصبح المسلمون القوة السائدة فى الهند.

« ويمكننا أن نتصور حوض إندس — الذى يقع ما وراء صحراء راجپوتانا فى أسفل مرتفعات أفغانستان — كالغرفة الأولى للهند الأصلية. وقد كان للمسلمين فى هذه الغرفة خلال ما يربو عن ٩٠٠ عام الأغلبية بين السكان. والبقاع الواقعة فى الناحية الشمالية الغربية من دلهى، أى فى المدخل الذى يقع بين الصحراء والمناطق الجبلية، مزروعة بميادين الحرب — القديمة منها على مقربة نهر جمنا حيث تمكن الفاتحون المسلمون من التغلب على المقاومة الهندية، والحديثة منها على مقربة من نهر ستلج حيث استطاعت القوات البريطانية الزاحفة من التغلب على السيخ (Sikh). وليس من باب الصدفة أن وقع اختيار الانكليزية على مدينة

شملا التى كانت المقر الصيفى لنائب الملك الانكليزى لنصف سنة كل عام، بل هى كذلك لأنها تقع على المرتفعات الهالية، وتطل على هذا المركز الطبيعى للامبراطورية والكفاح من أجل السيادة» — (تاريخ كمبرج للهند).

اتساعها

وقد تكون الهند قطرا منفصلة قائمة بذاتها من الناحية الجغرافية، ولكنها من ناحية الاتساع وحدودها الشاسعة أقرب إلى أن تكون قارة. فحجمها يساوى القارة الأوربية، باستثناء روسيا، أو عشرين ضعف مساحة بريطانيا العظمى. ومن بين التقسيمات أو المقاطعات فكل واحدة من پنجاب والمقاطعات المتحدة، والمقاطعات الوسطى، تفوق بريطانيا فى الحجم. ومساحة كل من مقاطعة بنغال وبهار، وأوريسا تساوى مساحة انجلترا واسكتلندا معاً. وكل من مديريتى بومباى ومدراس تفوق مساحتها من مساحة ايطاليا، بينما مساحة مقاطعة آسام تعادل مساحة انجلترا لوحدها. ولا تنزل الهند فى ضخامتها إذا قوبلت بمناسبة عدد سكانها بدلا من أرضها. فمجموع سكان الهند يعادل خمس سكان العالم. وكذلك كل واحدة من مقاطعات بنغال، أو مدراس، أو المقاطعات المتحدة، تفوق عدد سكانها سكان بريطانيا الكبرى فى حين أن مقاطعة آسام الصغيرة تضم من السكان ما يعادل سكان الممالك بلجيكا، أو السويد، أو هولندا.

تنوعها

وضخامة الهند قد أنشأت التنوع المطابق فى خصائصها الطبيعية وأحوالها الاجتماعية وقد وصفت الهند من أجلها بـ «ملخص العالم».

ألف — تنوعها الطبيعى

يتوفر للهند مجموعة من أحوال جغرافية هى مبعثرة فى جميع بلدان العالم وفى

المجال الواسع بين خطوطها العرضية والطولية تضم الهند ثلاثة أنواع من الطقس: طقس القطب الشمالى أو الجنوبى يوجد فى المساحات الواسعة على ١٥٠٠٠ قدم فى جبال هماليا والطقس المعتدل والحار فى سهولها المنخفضة الممتدة إلى البحر. ومن ناحية الرطوبة أو الأمطار تقدم الهند نفس المجال الواسع، من ٤٨٠ بوصة فى السنة من الأمطار فى چيراپونجى — وهو أكبر تسجيل قيد فى العالم — إلى أقل من ٣ بوصات من الأمطار السنوية فى السند وراجپوتانا. وهذا التنوع فى أحوالها الجوية قد أدى إلى التنوع المطابق فى منتجاتها. ويقول العالم «هوكر» إن نباتات الهند أكثر تنوعاً من النباتات فى بلدان أخرى لها نفس الضخامة فى المساحة فى النصف الشرقى من الكرة الأرضية، إن لم تكن فى أكملها. ويقول «بلاندفورد» إن تنوع الحيوانات فى الهند يفوق تنوع أوربا ولو كانت أوربا مضاعفة للهند فى حجمها. والواقع أن منتجات الهند، كما تقول «لى لى» تحتوى على جميع ما يحتاج إليه لخدمة الانسان. وعلى ذلك فان الطبيعة قد أنعمت على الهند قابلية خاصة فى الاكتفاء الاقتصادى لها وعدم الاعتماد على الغير فيه، وقد ترك للانسان تحقيقه.

ب — تنوعها الاجتماعى

الأقوام، واللغات، والمذهب

إن ضخامة عدد سكان الهند، وهم الذين يؤلفون خمس البشرية، تشتمل على أوسع تنوع فى حياتها الثقافية والاجتماعية. فهنا تجتمع السلالات البشرية الثلاثة المبدئية: القفقازى أو الصنف الأبيض مع ما يميل منه إلى الشقراء والسوداء، والمنغولى أو الجنس الأصفر، والحبشى أو الصنف الأسود (فى أندمان). ويشمل هذا التقسيم العام على الأصناف التالية من السلالات البشرية كما أشار إليه السر هربرت رائلى (Sir Herbert Risely) فى تقريره عن إحصاء السكان

فى عام ١٩٠١ م:

(١) الصنف الأصلى من السكان قبل الدراويديين. ويتميز هـذا الجنس بقصر القامة وعرض الأنف وغير ذلك من الخصائص التى سبق ذكرها، ويبنت فى ذكر القبائل المختلفة الموجودة فى الأدغال.

(٢) الصنف الدراويدى، وهو يتميز بقصر القامة، والبشرة السوداء، وغزارة الشعر، وطول الرأس، وعرضية الأنف، وهو يوجد فى جميع المنطقة الواقعة فى جنوب الأقاليم المتحدة وفى شرق خط الطول ٧٦° فى الشرق.

(٣) الصنف الهندى الآرى. الذى يوجد فى كشمير وبنجاب وراجبوتانا المتميز بطول القامـــة، وشقارة البشرة، وغزارة الشعر على الوجه، وطول الرأس، ودقة الأنف البارز.

(٤) الصنف التركى الفارسى الذى يوجد فى مقاطعـــة الحدود الشمالية الغربـية (N W Frontier Province)، وبلوجستان، والمناطق الواقعـة فى غرب إندس، ويتميز بقـامة فوق المتوسط، وبشرة شقراء ورأس عريض، وأنف طويل. فعلى هـذا فان نهر إندس هو حد سلالى بين صنفى التركى الفارسى والهندى الآرى، كما هو حد سياسى بين إيران والهند.

(٥) الصنف السيتى الدراويدى (Seytho-Dravidian) الذى يوجـد فى السند فى شرق إندس وكجرات وفى المناطق الغربية من الهند، ويتميز هذا الصنف عن الصنف التركى الفارسى بقامـة أقل طولا، ورأس أطول، وأنف أقصر وأمثـالها. ويظهر من اسمـــه أن العنصر الأجنبى فى الصنف بوجود الرأس العريض هو بسبب السيتيين الذين حكموا المناطق الغربية من الهند فى الفترة ما بين سنـة ١٢٠ و ٣٨٠ الميلادية. ولـكن لم يكن فى وسع السيتيين، كما

يظهر من تاريخهم، أن يؤثروا فى السلالة المحليـــة لأنهم بدلا من أن يؤثروا فى ثقافتهم، قد أخذوا بأنفسهم صبغة هندوسية بالتدريج. ولا بد أن انحدر العنصر الأحنى من السلالة الآلبية ذات رأس عريض، القاطنة فى غربى آسيا وإيران، والتى شقت طريقها إلى غربى الهند على نحو ما فعل الدراويديون. ولا بد أن حدث هذا فى عصور بعيدة عن الزمن الذى يبست وسدت فيه طريق الهجرة.

(٦) الصنف الآرى ـ الدراويدى أو الهـندوستانى من پنجاب الشرقية، والأقاليم الوسطى، وبهار شكل رأسه طويل والبشرة يتراوح لونها بين الأسمر والأسود، والأنف يتراوح بين المتوسط والعريض، والقامة دون المعتـدل — ما بين ٥ أقدام و ٣ بوصات، و ٥ أقدام و ٥ بوصات. ويعود أصله إلى اختلاط الهنديين الآريين مع الدراويديين المفتوحين. يوجد أولا هذا الصنف بحالة فى مقربة من خط الطول لـ «سيرهـند». ويظهر من رگويدا أيضاً أنه فى عهده لم يتعد الاستعمار الآرى إلى وراء سيرهند التى هى وادى «سرسوتى». إن رگويدا مربوط ببلاد ذات سبعة أنهر. والأدب الويدى المتأخر لبراهمنا واپنيشد، مربوط بالمناطق الشرقية بين نهرى جمنا وگنگا، وتمتد حتى مقاطعة متهرا المشتملة على كوروكشيترا — الأرض التى شهدت النضال منذ عصر مهابهارتا إلى حروب پانى پت. فالبرهان المنتج من الأدب تسعف البرهان الذى يتوفر من علم السلالات فيما يختص بالحـــدود الفاصلة ما بين هذين الصنفين، وهى الحـدود التى تتبع طبعا خط التقسيم الفـاصل بين دورين أو عصرين من التـاريخ، عصر هجرة القوم الهندى الآرى الذى تبعه عصر الاستعمار الهندى الآرى، وكان ذلك تطوراً بطيئاً محتوياً على فتوحات وامتزاج فى السلالات والثقافات.

(٦) الصنف المغولى فى برما وآسام ومنخفضات سلسلة هماليا المشتملة على بوتان ونيبال وأطراف الأقاليم المتحدة. وبنجاب وكشمير. ويتميز الصنف بالرأس العريض، والبشرة الغامقة الصفراء، وقلة الشعر على الوجه، وقصر القامة، والوجه المسطح، وجفن العين المـائلة ويرجع وجود هـذا الصنف إلى الفتوحات المغولية من تبت والصين

(٨) الصنف الشمـالى فى بنغال وأوريسا المميز برأس عريض، وبشرة غامقـــة، وشعر غزير على الوجه، وقامة متوسطة، وأنف متوسط مائل إلى العريض. وقد اصطلح « رائلى » لهذا الصنف اسم المغولى الدراويدى، لاعتقاده بأنه نتج بادغام عنصرى الدراويدى والمغولى. وقـد سبق لـنا أن أوضحنا بأنه من الصنف الآلى من ذوى الرؤوس العريضة والحاجز الفاصل بين بنغال وبهار هو سياسى وكذلك حسبى كما أشير إليـــه أيضاً فى المراجع الأدبـية فمثلا ذكــر أترواويدا أن أصحاب مگدا وأصحـاب أنگا هم من الأقوام الخارجة من صبغة الحضارة الآرية. فى حين أن مرجع ستاپاتا برهما يذكر أسطورة عن انتشار العقيـــدة البراهمية من منطقة غرب الشرقية إلى ويديها أو تيرهوت.

وهذا التنوع فى الأجناس مصحوب بتنوع على أوسع درجة فى اللغات فى الهند والتقرير الاحصائى الصادر فى سـنة ١٩٣١ قد عد ٢٢٥ لغة حية فى الهـند التى تمثل فيما بينها أربعة من الأسر العظمى للنطق البشرى أى الآسترية (Osteric)، والتبتية الصينية، والدراويدية، والهندية الأوروباوية. قد تركزت اللغة الدراويدية فى الجنوب فى لغات تيليگو، وتامل، وكنارى، ومليالم، ولكل واحدة منهـا أدب عظيم. وورائها فى الشمال تسيطر اللغة الهندية الآرية على اللغات المتكلمة التى لم تتركز وتتشكل بعد بالأدب. إن التوزيع الحالى فى اللغات الهندية الآرية

يحـــذو على نمس القواعد التى تحدو عليها المراجع السنسكريتية القديمة. ويعين «ستاپتا برهما» موطن النطق، أى اللغة الهندية الآرية، فى أرض كوروپچالا من حيث أنها انقسمت إلى جهات مختلفة. وبعد ذلك يعين «منو» موطن الثقافة الهندية الآرية فى ما يسمى «آرياورتا» أى المنطقة التى تقع ما بين جبال هماليا ووندبا من خليج بنغال إلى بحر العرب. ويعين «براهمارشيديسا»، وهى أرض كورو، وپچالا، ومتسايا، وشوراسينا، بأنها كانت إلى عهده حاملة للواء تلك الثقافة ومنار معلم. وعلى ذلك تعد فى العصور الحديثة منطقة وسطى من اللغات الداخلية، مثل اللغة الهندية الغربية. ولها حزام داخلى من اللغات مثل البنجابية، والراجستانية، والگجراتية فى الغرب، والبهارية فى الشمال، والهندية الشرقية فى الشرق. وحزام خارجى يشتمل على الكشميرية ولغــة اللاندائية، والسنــدية، والكچية فى الغرب، والمراتية فى الجنوب الغربى، والبهارية والبنغالية والآسامية والأورية فى الشرق. وكأنما تقع الثقافة الهـــندية الآرية من براهمارشيديسا التى تنطق المساحة للغوية الداخلية على طول مجارى گنگا وجمنا عبر كوسالا إلى مدينا وو... معه مساحات الحزامين الداخلى والخارجى من اللغات.

والصلات اللغوية بين براهما رشيديسا وبين المستعمرات الهـــندية الآرية الاندائية فى بلاد الأنهار السبعة لا بد من أنها تأثرت بالعروات الفارسيــة من قاعدتهم فى بكتيريا فى القرن السادس ق م. وكان نتيجة هذا الاتصال ما بين الايرانيين والهنديين الآريين ظهور مجموعة لغات مختلفة تعرف باللغــات البيساچائيـــة (Pisacha) التى ما زالت تحتوى على كثير من المفردات الويدية المهجورة، والتى تستعمل فى المناطق المحيطة بنهرى كابول وسوات المشار إليهما فى رگويدا. وفى ما وراء اللغات البيساچائيـــة والحزام الخارجى الهندى الآرى فى الغرب، توجد اللغات الايرانية كلغة پشتو وبلوچ.

وتقدم الهند أكبر تغاير من جهتها الدينية. فتوجد بها جميع أديان العالم فالهندوسية وحدها دين ٢٩٠ مليون نسمة من السكان، ولا بد لمذهب أن يكون جامعاً وعميقاً فى مادته حتى يوافق الناس بهذه الكثرة من الملايين. وذلك لاتساعه المنظم، وأسلوبه الجامع. وأصبح ديناً عمومياً لأناس متباين فى السلالة، واللغة، والتقاليد، والمصالح السياسية الاجتماعية. ولدين الاسلام حوالى ٩٠ مليون من المتبعين قد وزعوا على مختلف المقاطعات فى الهند بنسب مختلفة. مؤلفين الأكثرية فى مقاطعات الحدود العربية الشمالية، وبنجاب والسند وبنغال، وأقلية فى المقاطعات الأخرى. وهناك ١٢ مليونا من البوذيين. والمسيحيون هم أكثر من ٦ ملايين، والسيخ أكثر من ٤ ملايين، والجينيون أكثر من مليون، و ١٠٠ ألف من الفرس المجوس. وتقدم الهند تطور البشرية فى جميع أحوالها وأدوارها من أدناها إلى أعلاها. ويمكن أن توصف كمتحف طقوس، ومذاهب، وعادات، وثقافات، ومعتقدات، ولغات، وأصناف سلالية، وأساليب إجتماعية. ولكنها ليست بمتحف الأشياء الميتة، أو أغراض مادية، بل لملة حية، وأساليب روحانية كل يتطور على شاكلته

الهند وحدتها (١)

وهكذا كونت الهند بلاداً موحدة قد يفوت ويصعب تصورها فى وسعها الاقليمى واختلافها. ومجموعتها ضخمة جداً حتى لا يمكن إدراكها كوحدة، ويمكن إدراك أجزائها فقط. فهى أشبه بالاسطورة القديمة عن الرجال العميان الذين عاينوا فيلا، كل واحد منهم يمس عضواً منه ويحسبه جميع الحيوان. وتحضرنا واحدة من حكايات أوبانيشاد عن الخصام فى الأهمية الذى نشب بين الأعضاء الجسدية، غير مبالين عن الحياة التى قد عضدتهم جميعاً. والواقع أنه لمن العسير أن تتلمس

١ — إلا أن الظروف السياسية القاهرة مزقت وحدتها فى السنين الأخيرة

الوحدة فى الكثرة، والفرد فى الجماعة، والبسيط فى المركب. ومجرد التنوع ليس بدليل معاكس للوحدة بل على خلاف ذلك هو علامة الحيوية، والوفرة، والقوة.

ووحدة الهند الجغرافية واضحة على الخريطة تظهر كيف تنفصل البلاد تماما عن بقية العالم بحواجز كأنها لا تدلّ حد مشابهة بالحدود المتنازع فيها التى عينت بدون حقيقة بين بعض الدول الأوربية

وبالرغم عن هذا فالسؤال باق إلى أى درجة قد أدرك الأهالى هذه الوحدة الأساسية فى الهند أو مثلوها فى التاريخ؟ ليست هناك أهمية لنعم الطبيعة حتى سخرت لخدمة الانسان، وله أن يعرف كيف يستكشفها، ويسخرها ويستفيد منها.

إن أول شرط لتقدم الشعب فى السياسة والثقافة هو الحصول على قطر مقرر ومعين، يمكنهم أن يحسبوه موطنا لهم فيخدموه. فقوم لم يجدوا وطنا لأنفسهم، يسكنون فى حالات غير ثابتة وغير معينة، فى الاضطراب والالتباس، تنقصهم الشروط اللازمة التى يمكن أن تنمو فيها الثقافة والحضارة إن الحالة البدوية لهى من أسفل درجات الحضارة وإن الوطن لقوم بمثابة جسم لانسان، هو ضرورى للتعبير من نفسه ولا شك فيه أن تكوين أمة يتوقف على توحيد فى عدة عوامل، كالوحدة فى اللغة، والدين، والحكومة، والعمومية فى التاريخ، والتقاليد، والعادات والطقوس ولكن هذه العوامل كلها ثانوية، وجذورها مغروسة فى حياة مشتركة ووطن مشترك

كان تقدم الهنديين المبكر فى ميدان الثقافة والحضارة بسبب تعضدهم الهند كوطنهم المشترك فطبقا لذلك أطلقوا على الهند بأجمعها لقب «بهارت ورشا»، ومراجع پوران وصفت اصطلاح «بهارت ورشا» بأنها البلاد التى تقع فى شمال الأوقيانوس (أى الأوقيانوس الهندى) وفى شمال الجبال المثلجة (أى جبال هماليا)، والتى تتميز بسبعة سلاسل رئيسية من الجبال: مهيدرا، وملايا، وساهية،

وسوكتي مت، وركشا (أي جبال گوندوانا)، وونديا، وپاريپترا (أي جبال ونديا العربيـة إلى نهر أراواليس)؛ وفيهـا يقطن قوم بهارتا، فيسكن قوم كيراتا (أي الأهماج) في شرقها، وقوم ياوانا (أي الآيون أو اليونانيون) في غربها، والسكان أنفسهم يشتملون على برهمن، وشتري، وويسيا، وسودرا (أي الهندوسيين) — [راجع «وشنو پورانا» لولسن]. إن الاسم الحديث «هند» للبلاد ليس تسمية أهلية بل هي استيرادة أجنبية. كانت الهـند معروفة لدى الأجانب في العصور القديمة بنهرها «سندو» التي تلفظها الفرس «هندو» واليونانيون «إندوس» تاركين الحرف الحلقي الثقيل. إن تسميـة «بهارتا ورشا» ليست عبارة جغرافيـة محضة مثل اسم «الهند» بل لها معنى تاريخيا مشيرا إلى بلاد يقطنها قوم بهارتا — بلاد ثقافة الهـــند الآرية التي اتكلت لأعمدتها الرئيسية على قوم بهارتا. ولما تعين عند الهنديين الآريين بأنها كانت موطنهم فعمروها بأقصى جهدهم وقد استخدمت منهم عواطف حبهم وخدمتهم العميقة كما يدل على ذلك أدبهم وبموجب دعاء من أدعيتهم العمومية كان يلزم على كل هندوسي أن يتذكر صورة وطنه ويعبدها بصفتها أرض سبعة أنهر مقدسة گنگا، وجمنا، وگوداوري، وسرسوتي، ونرمدا، وسندو، وكاويري التي تقتسم فيما بينها مجموع مساحة البلاد ودعاء آخر يتضرع به إلى صورة الوطن كأرض تضم سبع مدن أيودهيا، ومتهرا، ومايا (هردوار الحالية)، وكاشي وكانچي (كنجي ويرم)، وأوانتيكا (أوجين)، ودراواتي (دواركا)، وهي المدن التي تمثل مناطق هامة من الهند وقـد عضد روح هذه الأدعية نظـام الزيارات الهندوسية العجيبة فيتطلب من الهندوسي أن يزور في حياته الأماكن المقـــدسة التي تقترن بمعتقدته. وتوجد لكل واحدة من المعتقدات الهندوسية لهجة أو فرقها قائمـة ذكرت فيها الأماكن المقدسة إما من صنف ويشـناوا، أو سوا، أو سكتا، وهي موزعة في طول الهند وعرضها، غير مقصورة على مقاطعة واحدة. ولقـد تجمع الفرق المختلفة على أن يفرض على كل حزب من المتعبين

أن يزور أماكن مختلفة وبعيدة فى البلاد حتى يبعث فيهم شعور حى عما يؤلف موطنهم المشترك. وعلى نفس هذا المعنى، أسس شنكرا أربع مراكز دينية (متا) فى أربع نقاط من أقصى جهات البلاد، هى «جيوتير متا» فى الشمال (على مقربة من بدرى كيدار على جبال هماليا)، و «سراد متا» فى دواركا فى الغرب، و «گوردهانا متا» فى پورى فى الشرق، و «سرنجرى متا» فى ميسور. وعلى هذا فالاعتقاد الذاتى ممهد للقومية فى الثقافة الهندوسية. وتوجد فى بعض المراجع المقدسة كمؤلف بهگوات پورانا أو مؤلف منو سمرتى عبارات مملوءة بحماسة حب الوطن. ذكر فيها أن الآلهة أنفسهم قد شكلوا بهارتا ورشا وودوا لو أنهم ولدوا فيها لأنها تمنحه الجنة على الأرض بسبب بيئتها المحركة للروح. وفوق ذلك، بلغ الذكر أوج المعنى القول «الأم والوطن يفوقان الجنة فى العظمة».

وتدل كل هذه الأدعية والفقرات أن الهندوس قد رفعوا شأن الوطنية إلى درجة الدين. ويقول الدكتور رادها كمود موكرجى: «ينظر الهندوسيون إلى الهند كوحدة سياسية، فهم يريدون أن تكون تحت سيطرة واحدة مهما كان صاحب السيطرة — سواء أكان مسلما، أو هندوسيا. وأن تكون الهند تجسيما ماديا لثقافتهم الروحانية، بل معبداً أو عبادة لهذه الأم لهم. وجعلوا الهند رمزاً لثقافتهم، وملأوها بروحهم حتى فى وجدت بهم تمثالاً شيء أكبر من أنفسهم».

والتجارب السياسية التى حصل عليها الهندوس القدماء ساعدتهم أيضاً علاوة على الدين، فى إدراكهم تصور الوطن وتمكن تصور وحدة البلاد إذا ما حكمتها سلطة سياسية واحدة. ولقد كان الهندوسيون القدماء على علم بنظام السيطرة العليا ومزيتها فى عصور قديمة جداً. وتدل على ذلك ألفاظ ويدية هامة مثل إكارات، أو سمرات، أو راجادهيراج، أو سرو بهوم، والرسوم الويدية للعادة مثل راجا سويا، أو واجابيا، أو أسواميدا، التى قررها الملك الذى أصبح نفسه

غزواته ملك الملوك. ويوجد فى بعض المراجع الويدية وبعدها فى النصوص أمثال مهابهارتا أو بوراناً، قوائم لمثل هؤلاء الملوك العظام. وعلاوة على هؤلاء الأباطرة الذين وجدوا فى فترة ما قبل التاريخ، قــد ظهر عدد منهم خلال فترة التاريخ من أمثال چـندرگپتا موريا، وأشوكا، وسمودراگپتا، وهرشا، ومبهيرا بهوجا. وفى الأيام الأخيرة جلال الدين أكبر وأورنگ زيب. وكان بعضهم يقدمون تضحية الحصان ليعلنوا عن سيطرتهم العليا، أمثال پوشيامترا، وسمودراگپــتا، وكماراگپتا الأول، وآديتياسينا، وپولاكيسين الأول. فلنظام السيطرة العليا تاريخ طويـل فى الهند. وكان إدراكها يوافق المثل الأعلى الذى وضع فى كتبهم المقدسة لأجل الملوك الذين لاقوا بماسة كونهم من جمـاعة المحاربين تشجيعاً على الطموح بأنه كان حلالا طيباً لهم أن يوسعوا مناطق سلطانهم إلى أقصى حدود وطنهم.

وتظهر وحدة البلاد أيضاً بطابع الثقافة الذى يميزها عن غيرها. هــذه الثقافة قد أنشأها الهندوس الذين يبلغ عددهم ٢٩٠ مليون. والفرس قد وصفوا الهـند كموطن الهندوسيين «هـندوستان». «الهنـد والهندوسيون، هما مربوطان فيما بينهما أساسياً كالجسد والروح» — (يقوله رمزى مكدانلد). وقـد أدت الهـــندوسية إلى جمـع الهنـد وحدة ثقافية متينـة ثابتـة تحملت خلال العصور صدمات الثورات السياسية، وذلك لأنها بقيت مصونة فى نظامها المميز فى الحكم الذاتى الاجتماعى الذى ظل منفصلا عن الدولة، أهلية كانت أم أجنبية وغير منتم إليها بأى صلة. إن الهـــند تسودها القرى، واعتبرت هـذه القرى كأنها جمهوريات تحكم نفسها، مع عدة كاملة من دستورات محلية لحفظ الثقافة الأهلية، غير مبالية بالتغيرات السياسية التى تطرأ فى الادارة العليا أو الحكومة المركزية.

وما هى الخصائص المميزة لهذه الثقافة الأهلية الهندوسية؟ قد بينت الخصائص فى الوصف الأهلى الهندوسى بأنها الديانة القائمة على تقسيم السكان إلى طبقتين

ومرحلتين من الحياة، وهى أميز خصوصية وأكبر موحد للهدوسية. ففى الأصل كما يتضح من المراجع الويدية كانت تتكأ على تقسيم المجتمع إلى أربع طبقات أو أربع هيئات إجتماعية على حدة: برهمن، وشترى، وويسيا، وسودرا. وبمرور الزمن انقسمت هده إلى طبيقات يصعب عدها. فالهدوس فى جميع الهند مقسمون فى مئات من الطبقات والطوائف. وأصل نظام الطبقات الدى هو مميزة للهند قد أسيء فهمه إلى حد كبير. فالنظام يتصل فى الأصل بحياة الفرد الذاتية والبيتية والدينية، ولا يتصل بالحياة العامة. وهو يحرم التزاوج فيما بين الطبقات المختلفة (لحفظ النسل فقط)، ولكن تقسيم الطبقات هو فقط جزء من النظام الهدوسى. والجزء الآخر هو تقسيم حياة الفرد إلى أدوار معينة:

(١) براهماچارى أو دور طلب العلم،

(٢) گراهستا أو دور الحياة الأهليه البيتية،

(٣) وناپراستا أو دور العبادة،

(٤) سنياسى أو دور نسك، ينصرف المرء فيه إلى التأمل.

والدور الثالث لا بد أن يبدأ والمرء فى الخمسين من عمره، العمر الذى يليق لرب البيت أن يعزل من الدنيا والحياة العائلية، وينصرف إلى أوسع وأعلى مصالح الحياة وفى خدمة الآخرين. ويقصد بالدور الأخير التهيأ للانتهاء بقطع جميع علائق الدنيا الممكنة. فهكذا تتألف الهدوسية فى هيئتها الاجتماعية الخارجية — كما سبق ذكره — فى فرعين نظام الطبقات ونظام الأدوار. ولسوء الحظ قد زاد التأكيد على نظام الطبقات بالنسبة إلى نظام الأدوار. إن نظام الطبقات يقسم على أساس الولادة ولكن نظام الأدوار يوحد، فيربط جميع الطبقات فى قوانينه المشتركة، حتى يهدى المرء حياته بجانب الطريقة المنظمة للتطور الطبيعى الدورى.

واللغة السنسكريتية هى مركبة لهذه الثقافة الهندوسية . ولا يمكن أن نبالغ أهمية نفوذ السنسكريتية تدعيم الوحدة . ولقد بينها مونير وليمس (Monier Williams) بالوضوح (فى الهندوسية ص ١٣)

«إن الهند وإن كان لها خمسمائة لهجات منطوقة ، فلها لغة مقدسة وحيدة ، وأدب مقدس وحيد ، يقبلها ويقدسها جميع أتباع الهندوسية على السواء ، مهما اختلفوا فى السلالة ، والرتبة ، والفرقة . فتلك اللغة المقدسة هى السانسكريتية ، وذلك الأدب هو الأدب السنسكريتى — المخزن الوحيد لويدا أى «العلم» فى أوسع معناه . وهو المركبة الوحيدة للمذهب الهندوسى ، وهو المرآة الوحيدة التى تنعكس فيها بالأمانة جميع الفرق الهندوسية ، وآرائها ، وخصائلها ، وعاداتها ، و (إذا أبيح لنا الاستعارة الرائعة) صخرة وحيدة من حيث تجلب جميع المواد الضرورية لتحسين اللغات المتداولة أو للتعبير عن الأفكار الدينية أو العلمية الهامة » .

وهذه الثقافة الهندية المتميزة قد وحّدت البلاد مع مرور الزمن إلى حد عرفت فيه البلاد والثقافة باصطلاحات مترادفة . فكانت البلاد هى الثقافة والثقافة هى البلاد ، فالمملكة الروحانية قد احتوت على الحدود الأرضية . ومنذ إدخالها فى الهند من عهد رگويدا ، قد انتشرت هذه الثقافة الهندية الآرية خلال العصور فى دائرات ومناطق كانت ولا تزال تتوسع ، وعرفت أدوارها المتتابعة سپتا-سندو ، وبرهما رشيديسيا ، وبراهما ورتا ، ومدهيا ديسا ، وآريا ورتا ، وجمبودويپا ، وبهارت ورشا ، إلى أن اجتازت بسبب وفرة نشاطها حدود الهند ، وشيدت الهند الكبرى فى ما وراء حدودها عبر البحار . وتوحد الأفكار الهندية وأنظمتها فى الأدب ، والأنصاب التذكارية ، والأناشيد ، والأساطير ، والأخلاق ، والعادات ، ولا تزال حية إلى الآن فى بلاد كسيام ، وكمبوديا فى البر الأصلى ، وفى جزائر جاوا ،

وسوماترا، وبالى، ووريو، وكان ذلك على يد المهاجرين الهنود المستوطنين فيها. وبعض هذه البلاد قد تلقت حتى دياناتها من الهند، أمثال تبت، ونيبال والصين اتبعت مذهب «مهايانا» من البوذية وأمثال برما، وسيلان، وسيام، وكمبوديا، التى تدينت بمذهب «هايانا» من البوذية. إن الاستعمار يستمد جذوره من القومية النشيطة المتعدية التى تتعدى شعور الموطن المشترك وثقافتها المتميزة

أثرها على التاريخ

إن ما تركته الهند أو خلفته من أثر على التاريخ، يصعب جدا تحديده وبالرغم عن وحدة الهند الأساسية، قد أوجد اتساع حجمها وتنوع هيئاتها الطبيعية وأحوالها الاجتماعية، النتائج الطبيعية على تاريخها وتشوه سياستها ولقد عسر دائما أن تنسق الهند بأجمعها فى وحدة، وأن يبسط حكمها من مركز واحد تحت سلطان واحد، أو تحت سيطرة سياسية واحدة والنتيجة هى أن الهند لم تدرك نظاما كاملا أو نشوءاً موحداً حتى نسمى تاريخها بالتدقيق كـ «تاريخ الهند» كما نقدر أن نسمى «تاريخ انجلترا» أو تاريخ فرنسا إن تاريخ الهند قد تحلل فى أكثر الأحيان فى تواريخ فرعية، ثانوية، غير مسلسلة، ولا تبقى هناك مواصلة فى تاريخ عام لجميع الهند وبدل أن ينشأ التاريخ من مركز واحد تحت إدارة مشتركة، قد نشأ فى الغالب من مراكز مختلفة، وحتى من مراكز مستقلة فيما بينها، فاقداً وحدته فى تنوع تواريخها المنعزلة والمحلية لمختلف الشعوب والمناطق التى كانت تتطور حسب أساليبها المستقلة، والتى قدمت نقاطا ضئيلة فى الاتفاق، ونقاطا وافرة فى النزاع بينها.

وترتب عليه أن يتتبع ويدرس تاريخ الهند السياسى فى قطعات وكسرات، وفى انقطاعات وترتيبات منعزلة، وفى الحلقات المفقودة المتعددة. ولقد تشكل التاريخ خلال العصور على أيدى عدة أقوام وحكومات أمثال موريا، وكوشان، وإيندرا، وگپتا، وگورجارا للشمال، وپلاوا، وچالوكيا، وچولا فى الجنوب، أو

المسلم، ومراتها، والسيح، والانكليز فى الأيام الأخيرة وقد حكم هؤلاء من مراكز مختلفة ومتغيرة أمثال پاتلى پترا، وپورشاپورا، وپيتهان، وناسك، وأوجين، وقنوج، وبدامى، وكانچى، وكليان، وتانجور، ودلهى، وپونا، ولاهور، وكلكتا كل هذه كانت مراكز الادارة المختلفة لأولياء الأمور السياسيين، ولمختلف أدوار فى التاريخ الهندى. ولقد حدث مرة واحدة للهند أنه كان لجميع الهند تاريخا واحدا تحت سيطرة حكومة عامة، وهى إمبراطورية موريا فى رئاسة أشوكا الذى دبر أن يشعر بنفوذه فى جميع أنحاء البلاد بل فى أفغانستان وبلوجستان، حتى إلى فارس كأجزاء الهند موسعة، أصبح لها الامبراطور أشوكا، السلطان الأعظم

ويجب أن يفهم أنه علاوة على ضخامة الهند، لم تسمح الأحوال فى العصور القديمة — كالصعوبات فى المواصلات قبل الاختراعات الميكانيكية الحديثة أن تتكون فى الهند أمبراطورية واسعة أو إدارة حكومة مركزية ولكى يكون لنفوذ سلطة أثر حتى تكون الأجزاء المختلفة البعيدة فى مساحة واسعة، مألوفة على طاعة حكمها، كان لها أن تكون غير مركزية لحد بليغ، معطية دائرة وسيعة للحكومات المحلية فهكذا كان هناك ولا بد حياة وتاريخاً محلياً، غير مبال بالحياة العامة والتاريخ الهندى وبذا أصبح التاريخ الهندى مجرد مجموعة من التواريخ المحلية المتفرقة

ويلاحظ أنه فى وراء هذا الاختلاف فى التاريخ المحلى، كان هناك دائما فى أرضية الصورة تاريخ جميع الهند، الذى لم يكن سياسياً بسبب كيفية الأحوال، ولكن كان ثقافياً فى صبغته التاريخ الفكرى الذى يتجاوز الحدود المحلية والتخوم الادارية إن جميع الهند لتحمل بعض حركات الفكر والحياة المشتركة التى تنتج فى قيام بعض المبادى العالميـة المشتركة والأنظمة التى تميز الحضارة الهندية عن غيرها من الحضارات العالميـة، وتصفها بأنها «وحدة فى تاريخ النشوء البشرى اجتماعياً، ودينياً، وذهنياً» — (يقوله إسمث [Smith] فى «تاريخ الهند القديم»).

مجلس الهند للروابط الثقافيـــة

تقرير السنوات الخمس (١٩٥١ — ١٩٥٦)

قدم سكرتير المجلس السيد إنعام الرحمن خان تقريرا عن نشاط «مجلس الهند للروابط الثقافية» خلال السنوات الخمس الماضية، فى إجتماع الهيئة الادارية العليا للمجلس المنعقد فى شهر أبريل الماضى تحت رئاسة رئيس المجلس مولانا أبى الكلام آزاد. وفيما يلى مقتبسات من ذلك التقرير.

كان المجلس فى عام ١٩٥١ يشتمل على ثلاثة أقسام — قسم الشرق الأوسط، وقسم جنوب شرق آسيا، والقسم الايرانى والآن توجد عندنا ثمانية أقسام، وهى (١) قسم غرب آسيا (وكان يسمى قسم الشرق الأوسط سابقاً)، (٢) قسم شرق آسيا (قسم جنوب شرق آسيا سابقا)، (٣) القسم الايرانى، (٤) القسم الأفريقى، (٥) قسم منطقـــة جزر غرب الهند البريطانية (Caribean)، (٦) قسم لخدمة الطلاب، (٧) قسم الاستعلامات، (٨) مكتبة ودار المطالعة.

وليست عنـــدنا الآن أقسام خاصة لبلاد أوروبا وأمريكا لأسباب شتى، ولكن نشاطنا يمتد إلى تلك المناطق ونقوم باتصالات خاصـــة مع المؤسسات الثقافية فى تلك البلاد

وإليكم خلاصة نشاطنا فى الأقسام المختلفة

١ ـ قسم غرب آسيا (مع القسم الايرانى).

يقوم المجلس باتصالات مستمرة مع المنظمات الثقافيـــة المحلية فى بلاد غرب آسيا. وكذلك يستقبل بلاد الناطقين بالضاد والبلاد التى يتكلم أهلها